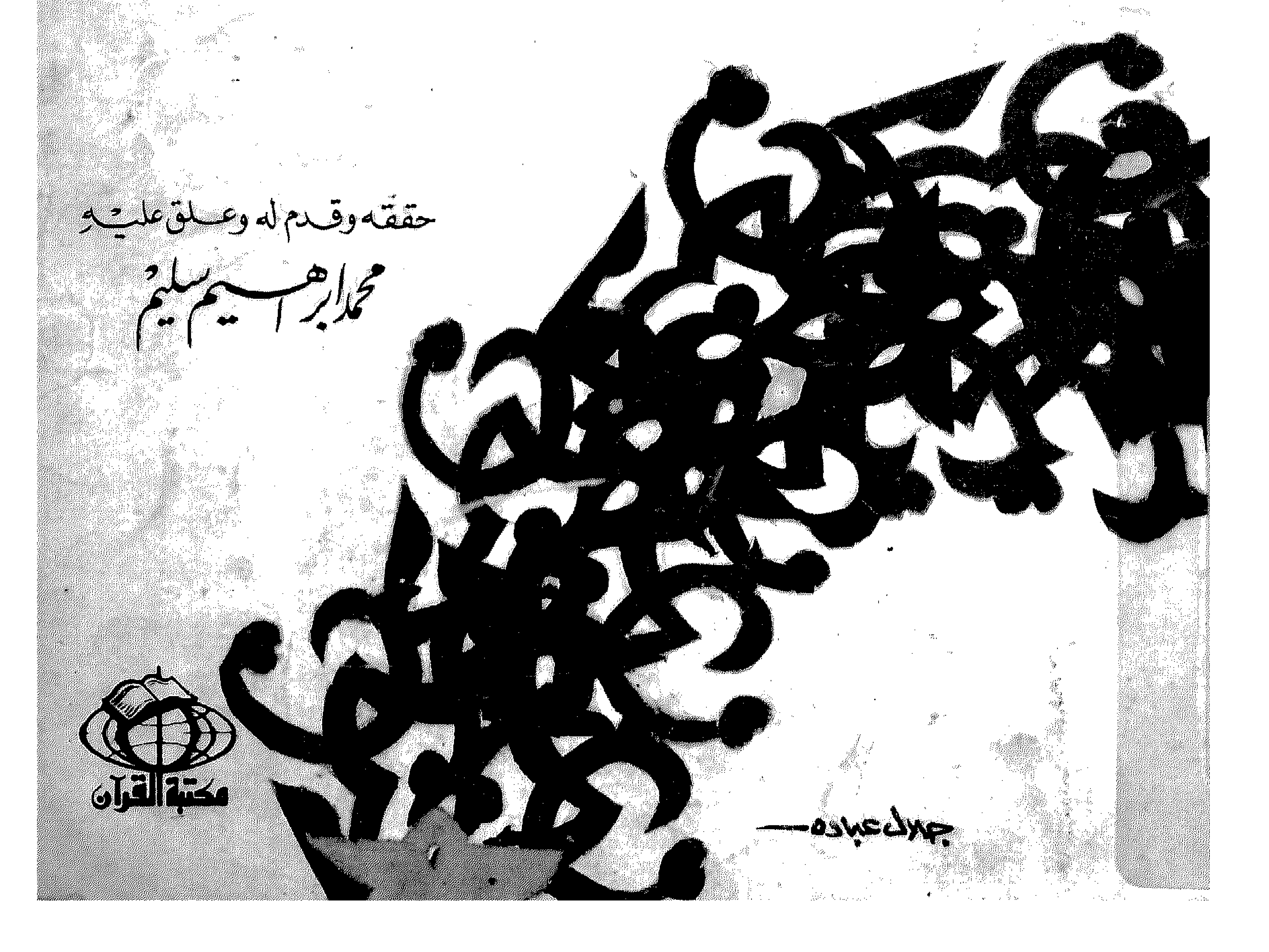
اخترت لك من التراث

قصة السحر والسحرة

في القرآن الكريم

لشيخ الإسلام الإمام محمد الرازي فخر الدين
٥٤٤ - ٦٠٦ هـ

حققه وقدم له وعلق عليه
محمد ابراهيم سليم



اخترت لك من التراث

قصة السحر والسحرة

في القرآن الكريم

لشيخ الإسلام

محمد الرازى فخر الدين بن العلامة ضياء الدين المشتهر بخطيب الري

من تفسيره الكبير مفاتيح الغيب

٥٤٤ / ٦٠٦ هـ

حققه وقدم له وعلق عليه

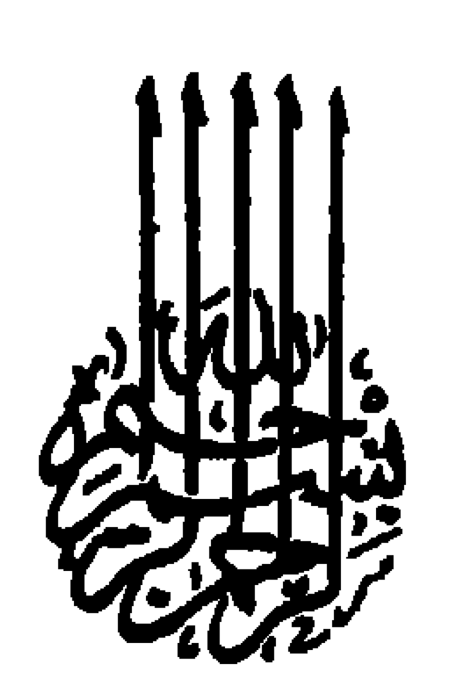
محمد ابراهيم سليم

مكتبة القرآن

للطبع و النشر و التوزيع

٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق

القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢



الإهداء ...

إلى الذين يبحثون عن العلم اليقينى .. الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ..

هو ذا كتابكم هدى ونور ..

مقدمة
المحقق

من نعمة الله علينا نحن – المسلمين – أن جعل لنا الإسلام دين حقائق لا دين خرافات وأباطيل !!

علمنا الحب والتآخي ، وحبب إلينا الإيمان ، وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، ونفرنا من السحر ، والشعوذة وكل ما يضر بالإنسان !

ومن عجب أن هناك صِنفًا من الناس ، لا يفهمون هذا المعنى ، ولا يقيمون للمَحبة وزنا ، هدفهم الإيذاء والإضرار ، وكأنهم لم يسمعوا : « لا ضررَ ولا ضرار » ! ، أولئك هم السحرة الأشرار !

لقد جُبِلُوا على الشر ، وأقاموا عليه ، وبدت البغضاء من أفواههم ، وماتُخفى صدورهم أكبر ، يفرقون بسحرهم بين المرء وزوجه ، وينشرون بكيدهم الفزع والخوف فيمن يترددون عليهم !

سلاحهم المكر والدهاء ، وهدفهم التغرير بالبسطاء ، يجتذبون إليهم النساء والرجال ، ويبتزون منهم الأموال .

إنهم يتحدثون فى وطننا الإسلامى عن ذلك النشاط الغامض الذى يُمارَسُ كل يوم فى مختلف العواصم والقرى ، ويذهب ضحيته مئات المسلمين ، نتيجة الجهل وتصديق المشعوذين

والدجالين ، فياها من ظاهرة مؤسفة ؛ تدور فى خفاء وتكتم بأساليب غامضة ، ومعالجات مثيرة !!

ولا عجب ، فسوف يظل العالم الإسلامي معرَّضا لغزو فكرى ، يتراءى لنا فى تلك الوثنيات الجديدة ، والشعوذات القديمة ، واستغلال حسن ظن الناس ، وفطرتهم البريئة !!

وهنا يتجلى دورنا فى غرس العقيدة الطاهرة السليمة فى نفوس الناس ، وتوضيحها توضيحا كافيا ؛ ليتسنى لنا الوقوف فى وجه تلك الموجات الموجهة إلى عالم الإسلام والمسلمين .

وما أكثر الذين يتعطشون إلى درك الحقائق لتصح عقيدتهم ، ويقوى بالله يقينهم فى مواجهة الأوهام والأباطيل ، والشكوك والشبهات والأساطير والخرافات !!

ومن أجل ذلك كله كان اختيارنا « قصة السحر والسحرة فى القرآن » موضوعا لكتابنا هذا .

ولم يكن بد من الرجوع إلى الأئمة المفسرين قديما وحديثا لنلم بجوانب هذا الموضوع ، ولنجيب عن كل التساؤلات بما يبدد سحب الشك ، ويقضى على كل الأوهام ، وإذا بالفخر الرازى يتناول فى تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » : حكم الاشتغال بالسحر ، ودعاء الناس إليه ، وإقبالهم عليه ، والعلاج منه ، بما يفى بكل المطلوب ، ويحقق الهدف المنشود ، ويبدد سحب الأوهام ، وكيف لا وهو علّامة المعقول والمنقول ، وإمام المتكلمين ، ونابغة المتأخرين ، العالم بحقائق المنطوق والمفهوم أصولا وفروعا ، وصاحب المؤلفات الكثيرة فى علوم شتى ؟!!

ورحنا نبحث عن الحقيقة فى المنبع الصافى لنضع بين يدى المسلم ما يحميه فى دنياه ، وينجيه فى أخراه من غضب الله .. سورة فسورة .. وآيةً بعد آية لنجمع هذا الحصاد من العلم

اليقيني ، والقول الفصل فيما يشغل البال ، ويكثر فيه القيل والقال ، ويدور حوله أكثر من سؤال !!

ولم يكن بد من الرجوع إلى المفسرين فى العصر الحديث لنجمع بين يدى القارىء المسلم دراسة وافية ، ومعلومات كافية فى هذا المجال ، تريح البال ، وتغنى عن السؤال . وإذا كان الشك يطل برأسه بين الحين والحين ليستقطب إليه ما شاء من صفوف المسلمين ؛ فإن من واجبنا – وقد أتيح لنا أن ننفر منذ الصغر لنتفقه فى الدين – من واجبنا أن نحذر قومنا وننذرهم بما يُكَادُ لهم مما يبلبل أفكارهم ، ويزلزل إيمانهم .

فتلك هى رسالتنا ، وذلك هو واجبنا ، أما أنت أيها القارىء المسلم ، فاستعن بالله ولا تعجز !

و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد .. ﴾

فإنك إن فعلت فقد استعذت بمعاذ ، وحسبك الله نعم المولى وخير مَلاذ .

المحقق

محمد إبراهيم سليم

القاهرة فى أول رمضان ١٥٠٤ هـ

الموافق ٢١ من مايو ١٩٨٥ م

دراسة التحقيق

- مع الإمام فخرالدين الرازى .
- تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » .
- منهج التحقيق ، وطريقة الاختيار .

المؤلف .. والكتاب .. والموضوع

أما المؤلف :

فهو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التيمى البكرى الطبرستانى الأصل ، الرازى المولد ، الفقيه الشافعى .

فهو عربى قرشى من سلالة سيدنا أبى بكر الصديق .

وقد تعددت فى كتب التاريخ كنيته كما تعدد لقبه شأن ذوى المكانة وأهل المنزلة .

فهو : أبو عبدالله ، وأبوالمعالى ، وأبوالفضل ، وابن خطيب الرِّى ، وابن الخطيب .

وهو : الإمام ، وفخرالدين ، والرازى ، وشيخ الإسلام .

والرازى : نسبة إلى مدينة الرِّى التى ولد فيها عام ٥٤٤ هـ ، وكانت حينئذ عاصمة كبرى ، وقد بادت الآن ، وتوجد خرائبها وأطلالها على مقربة من مدينة طهران عاصمة إيران . .

وقد تنقل من الرى إلى خُراسان وبخارى ، ثم العراق والشام ، وكان أكثر استقراره وتدريسه بخوارزم ، ثم استوطن « هراة » من البلاد الأفغانية ،

وكانت وفاته بها سنة ٦٠٤ هـ

كأنما كان على موعد مع الأحداث الجسام فى حياة الإسلام فقد جاء مع النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ليشهد تلك الفترة الحرجة فى حياة المسلمين ، فقد بلغ الوهن مداه بالدولة العباسية إلى جانب موجات الفزع التى كانت تأتى مع أخبار الحروب الصليبية فى الشام ، والتتر فى المشرق !

وكأنما قد أعده القدر ليواجه تلك الخلافات المذهبية والعقائدية وذلك الجدل الذى كثر بين الفرق الكلامية : من شيعة ، ومعتزلة ، ومُرجئة وباطنية ؛ ففى هذه الاضطرابات السياسية والعقلية والدينية نشأ الرازى ، وأخذ نصيبه فى كل ذلك ، فراح يناظر المعتزلة فى خوارزم ، وفيما وراء النهر ، وينال منهم ، وينالون منه ، ويناله أذاهم .

تعدد جوانب شخصيته العلمية .

وقد تعددت مواهب الرازى وجوانب شخصيته :

١ – فهو الفقيه الذى يعتمد على الحجج العقلية فى فهم الآيات حتى أنه وضع تفسيرا خالصا لسورة البقرة على الوجه العقلى لا النقلى .

٢ – وهو الأصولى الذى فاق أهل زمانه فى الأصلين : أصول الفقه وأصول الدين .

٣ – وهو المتكلم الذى كانت شهرته بعلم الكلام أوضح من شهرته بعلمى الأصول والفقه .

٤ – وهو الرازى الفيلسوف الذى صرف شطرا من العمر ليرد على الفلاسفة .

٥ - وهو الرازى الطبيب الذى قيل فيه :

« كثير البراعة ، قوى النظر فى صناعة الطب ومباحثها »

ويكفيه كتابه « الجامع الكبير فى الطب » .

فلا عجب أن يقول فيه ابن خلكان :

« فريد عصره ، ونسيج وحده ، فاق أهل زمانه فى علم الكلام والمعقولات له التصانيف المفيدة فى فنون عديدة ، منها : تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة »

ولا عجب أن يقول اليافعى فيه :

« الإمام الكبير ، العلامة النحرير ، الأصولى المتكلم ، المناظر المفسر ، فاق أهل زمانه فى الأصلين ، والمعقولات ، وعلم الأوائل .

صنف التصانيف المفيدة فى فنون عديدة ، منها تفسير القرآن الكريم ، جمع فيه من الغرائب والعجائب ما يطرب كل طالب »

فنحن مع شخصية متعددة الجوانب ، كثيرة المواهب ، تكشف عن علم واسع ، وعقل حصيف .

مؤلفـــاته :

من أعماله « مفاتيح الغيب فى تفسير القرآن الكريم » ويقع فى ستة عشر مجلدًا ومنه أعددنا لك كتابك هذا الذى بين يديك .

و « شرح الوجيز » للغزالى فى فروع الفقه الشافعى ، و « المحصول فى الفقه » و « فضائل الصحابة » و « الأربعين فى أصول الدين » و « إبطال القياس » و » السر المكتوم فى مخاطبة النجوم » و « المباحث المشرفية فى الحكم الإلهية » و « الدلائل فى عيون المسائل » فى علم الكلام و « الهندسة » و « لب

الإشارات » و « الطب الكبير » و « عصمة الأنبياء » و « عجائب القرآن » .
إلى غير ذلك مما يشهد له بالفضل ، ويكشف عن علم واسع ، وعقل حصيف .

الكتاب :

ماذا قصد الرازى من دراسته التفسيرية ؟

قصد الرازى من دراسته التفسيرية أن يبين تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفَلْسفية ، وانفراد القرآن بهداية العقول البشرية إلى غايات الحكمة عن طريق العصمة .

فلقد كتب فى وصيته التى أملاها عند احتضاره : « لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن الكريم ؛ لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات ، وماذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية ، تتلاشى فى تلك الحقائق العميقة والمناهج الخفية »

قيمة تفسير الرازى العلمية

إن تفسير مفاتيح الغيب من أجَلّ التفاسير ، وإن كان أطال فى الاستدلال ورد الشبه إطالة كادت تغطى على كونه كتاب تفسير !!

ولست مع ابن عطية الذى يقول فيه :

« فيه كل شىء إلا التفسير »

فإنه – رحمه الله – مع الاستطراد إلى ذكر الأدلة والبراهين قد وفى الموضوع حقه .

لماذا آثرنا هذا التفسير ؟

هناك مميزات كثيرة تجعلنا نؤثر تفسير الإمام الرازى لنقدم من خلاله « قصة السحر والسحرة فى القرآن » وها هى ذى :

أولاً : أنه يكاد يخلو من الإسرائيليات . وإذا ذكر شيئا منها ، فلأجل أن يبطله ، وذلك كما صنع فى قصة هاروت وماروت – موضوع البحث .

ثانياً : تعرض بالتزييف لبعض المرويات التى تخل بعصمة النبى ﷺ وأبطلها .

ثالثاً : إطالته فى الاستدلال ورد الشبه .

رابعاً : هذا التفسير غنى بأسباب النزول مسندة كانت أو غير مسندة وفى الغالب ما يسندها إلى صحابى أو تابعى .

خامسا : يمتاز بالاستطراد ، وتصريف الأقوال ، والإبعاد فى الجدل والنقاش ؛ لذلك قال الصفدى فى كتابه ، « الوافى بالوفيات » : « أتى الرازى فى كتبه بما لم يسبق إليه ؛ لأنه يذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها ، وقسمة فروع ذلك التقسيم .

سادسا : ملأ فخرالدين الرازى كتابه بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وخرج من شىء إلى شىء ، حتى يقضى الناظر العجب ، فانصبت له القواعد ، وانحصرت المسائل » .

سابعا : لأنه كما يقول « جولد تسهر » ينبغى عده خاتمة أدب التفسير المثمر الأصيل .

مصادر التفسير الكبير :

١ – حوى آراء أئمة المفسرين كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى وسعيد بن جبير .

٢ – نقل عن كبار الرواة فى اللغة كالأصمعى ، وأبى عبيدة ، وعن العلماء : كالزجاج والمبرد والفراء .

٣ — نقل عن الزمخشرى آراء المعتزلة ليرد عليها ويبطل حججها ، كما نقل عن الواحدى ، وابن قتيبة ، والباقلانى ، والطبرى ، ومقاتل ، والثعلبى لهذا وغيره كان اختيارنا لهذا التفسير ، الذى تحكى سطوره جهد عالمنا الكبير فى تبيان آيات القرآن الكريم ، وعلمه الغزير ، وثقافته الواسعة ، وأسلوبه المتميز الذى فتح به آفاقا واسعة للباحثين بعده .. وإلى عصرنا هذا .

الرازى والتفسير بالرأى

لعلنا لا نبعد إن قلنا : إن القرآن نفسه يدعو إلى هذا الاجتهاد فى تدبر آياته ، وفقه تعاليمه ، قال تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] وقال : **﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ﴾**[2] .

وقد نقل السيوطى عن الزركشى فى (البرهان) خلاصة الشروط التى لابد منها لإباحة التفسير بالرأى[3] فرآها تندرج تحت أربعة :

أولاً : النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

ثانياً : الأخذ بقول الصحابى ، فقد قيل إنه فى حكم المرفوع مطلقا . وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه .

ثالثاً : الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى مالا يدل عليه الكثير من كلام العرب .

رابعاً : الأخذ بما يقتضيه الكلام ، ويدل عليه قانون الشرع وهذا النوع الرابع هو الذى دعا به النبى ﷺ لابن عباس فى قوله : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

---

(١) سورة محمد : ٣٤ (٢) سورة ص : ٢٩

(٣) أنظر الإتقان (٢/٣٠٤) و (البرهان ٢/١٥٦ – ١٦١)

وأشهر التفاسير التى تتوفر فيها أكثر هذه الشروط ، تفسير الرازى[1] المسمى (مفاتيح الغيب) .

والرازى فى تفسيره يسلك مسلك الحكماء الإلهيين فى الاستدلالات الكلامية المنطقية ، ويعنى ببحث الكونيات عناية خاصة ، ويقسم الآية أو الآيات التى يكون بصدد تفسيرها إلى عدد من المسائل ، ثم يسترسل فى تأويلها مدافعا عن عقيدة أهل السنة والجماعة .

وتفاسير الفرق الإسلامية ترجع إلى التفسير بالرأى غير أنها تدخل فى النوع المذموم منه ؛ لأن أصحابها لم يؤلفوها إلا لتأييد أهوائهم ، أو الانتصار لمذاويقهم ومواجيدهم من ذلك تفاسير المعتزلة والمتصوفة والباطنية .

ويغلب على تفاسير المعتزلة الطابع العقلى ، والمذهب الكلامى ، تبعا لقاعدتهم المشهورة « الحسن ما حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل »[2] وخير من يمثل هذه النزعة العقلية فى التفسير الزمخشرى[3] فى كتابه الكشاف ونرى الفخر الرازى يتصدى لآرائهم ، ويرد عليها ويفندها مدافعا عن عقيدة أهل السنة .

خطتى فى إخراج هذا الكتاب

أولا – لما كنت حريصا على أن أقدم للقارىء المسلم عملا متكاملا فى قضية تشغل البال ، ويدور حولها أكثر من سؤال ، ويهتم بها النساء والرجال – جعلت البحث يدور فى محاور ثلاثة تمثل اتجاه التفسير والمفسرين فى القرن السادس الهجرى وبداية القرن السابع ممثلا فى الفخر الرازى وهى :

أ – قصة السحر والسحرة فى مصر القديمة ، وتصوير ذلك اللقاء الحاسم بين السحر والمعجزة ، وما كان من إيمان السحرة برب العالمين ، رب موسى وهارون ؛ لتقوم بعد ذلك الديانة اليهودية على إبطال السحر !

(١) أنظر وفيات الأعيان : (٤٧٤/١) .

(٢) فى دائرة المعارف الإسلامية بحث لا بأس به عن المعتزلة .

(٣) محمود بن عمر الملقب بجارالله ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

ب - قصة السحر والسحرة فى بابل ، واتباع اليهود ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وإقبالهم على تعلم السحر ، وإعراضهم عما جاء به محمد ﷺ ، ونبذهم كتاب الله وراء ظهورهم ، وهو الذى جاء مصدقا لما معهم من التوراة ، وفيه نجاتهم من غضب الله الذى سبق أن نجاهم من فرعون وملئه ، وأبطل كيد السحرة والساحرين .

جـ - النفاثات فى العقد ، وكيف يتاح للمسلم أن يؤمِّن نفسه من شرهم ، ويحصنها من كيدهم ، ويقيها أذاهم ، وكيف يصبح المسلم قادرا على إبطال السحر وحله ؟

ثانيا - جمعت ما تضمنه التفسير الكبير للإمام فخرالدين الرازى من دراسة عن « السحر وموقف الإسلام منه » وجعلته مقدمة بين يدى « قصة السحر والسحرة فى القرآن الكريم » دون إضافة أو نقص ؛ فبدت كأنما قد أعدها الفخر الرازى لتكون دراسة كافية وافية فى هذا المجال .

ثالثا - استكمالا للبحث ، واهتماما بكل ما من شأنه أن يعطى القارىء المسلم إلماما كاملا يحقق له الفهم والفقه فى الدين ، ويمنحه مزيدا من الإيمان واليقين ، كان لابد من إضافةٍ تُطْلِعُ المسلم على حقيقة السحر وموقف الإسلام منه عند علماء عصرنا الحديث ، وجعلت ذلك خاتمة البحث ، ليصبح الكتاب مرجعا وافيا ، وبحثا شافيا ، لا غنى للمسلم عنه .

بقى أن أقول : إننى خرجت آياته ، وضبطت ما يحتاج إلى ضبط من كلماته ، وعلقت على بعض موضوعاته ، بما يتيح للقارىء السعادة والمتعة ، ويغنيه عن البحث فى غيره أو الرجوع لسواه .

وسوف يلمس القارىء أننا لم نقصر فى وضع العناوين والتبويب والترتيب ، مما يتيح قراءة أفضل ، ومتعة أجمل ، وإلماما أكمل .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

القسم الأول

السحر وموقف الإسلام منه

– كل ما له وما عليه –

دراسة يقدمها الإمام فخر الدين الرازى

بين يدى الآيات وتضمنها تفسيره الكبير

مفاتيح الغيب



أحكام وفتاوى ، تتعلق بالسحر والسحرة

في هذه الدراسة القيمة يجيب إمامنا عن كل التساؤلات :

- ما المراد بالسحر لغة وشرعا ؟
- للسحر أقسام وأنواع فماذا قال عنها الفخر الرازى ؟
- ماذا قال المسلمون الأوائل فى تلك الأنواع ؟
- هل العلم بالسحر قبيح ومحظور ؟
- هل الساحر قد يكفر ؟
- هل يجب قتل السحرة ؟
- هناك قراءة لنافع وابن كثير وعاصم فما هى ؟
- من أولئك الذين يظهرهم الله على غيبه ؟
- وهل الجن يعلمون الغيب ؟
- ما العلاقة بين السحر والجن ؟
- وماذا قال الله فى الكهنة الذين يتكلمون باسم الجن ؟
- من أولئك الذين يعوذون برجال من الجن ؟
  وماذا كان مصيرهم ومصير أمثالهم ؟

الكلام فى السحر

يقول الفخر الرازى فى بحثه القيم الذى تضمنه تفسيره الكبير مفاتيح الغيب :

« واعلم أن الكلام فى السحر يقع من وجوه »

المسألة الأولى

فى البحث عن السحر لغة فنقول :

ذكر أهل اللغة أنه فى الأصل :

« عبارة عما لَطُفَ وخفى سببه »

والسَّحر (بالنصب)[1] : هو الغذاء ؛ لخفائه ولطف مجاريه

قال لبيد :

ونسحر بالطعام وبالشراب

قيل فيه وجهان :

أحدهما – أن المراد : نعلّل ، ونخدع كالمسحور المخدوع . والآخر – نُغَذّى .

وأى الوجهين كان فمعناه الخفاء . وقال :

فإن تسألينا : فيم نحن ؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المسَحَّرِ

وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الأول .

ويحتمل أيضا أن يريد بالمسحر . أنه ذو سَحْر . والسحر هو الرئة وما تعلق بالحلقوم ، وهذا أيضا يرجع إلى معنى الخفاء .

(١) يقصد : بالفتح .

ومنه قول عائشة – رضى الله عنها – « تُوُفِّىَ رسول الله ﷺ بين سَحْرى ونَحْرى »[1]

وقوله تعالى : ﴿ إنما أنت من المسَحَّرين ﴾[2] .

يعنى من المخلوقين الذى يطعم ويشرب . يدل عليه قولهم : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾[3] . ويحتمل : أنه ذو سحر مثلنا .

وقال تعالى : حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال للسحرة : ﴿ ماجئتم به السحر إن الله سيُبْطِلُه ﴾[4] .

وقال : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾[5] فهذا هو معنى السحر فى أصل اللغة .

المسألة الثانية

لفظ السحر فى عرف الشرع

اعلم أن لفظ السحر فى عرف الشرع مختص بكل أمر يَخْفَى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد ، أفاد ذم فاعله . قال تعالى : ﴿ سحَروا أعينَ الناسِ ﴾[6] يعنى

---

(١) قال الفيومى فى المصباح المنير : السحر : الرئة ، وقيل ما لصق بالحلقوم والمرىء من أعلى البطن . وقيل هو كل ماتعلق بالحلقوم من قلب وكبد ورئة . وفيه ثلاث لغات . وزان فَلْس.. وسبب وقُفل : سَحْر ، سَحَر سُحْر . وكل ذى سحر مفتقر إلى الطعام . والجمع أسحار . أما السِّحْرُ بالسين المشددة المكسورة ، فهو كما قال ابن فارس : إخراج الباطل فى صورة الحق . ويقال : هو الخديعة وسحره بكلامه استماله برقته وحسن تركيبه . وقال بعضهم : لما كان فى البيان من إبداع التركيب وغرابة التأليف مايجذب السامع ، ويخرجه إلى حد يكاد يشغله عن غيره شبه بالسحر الحقيقى . وقيل هو السحر الحلال . والنَّحر : موضع القلادة من الصدر . والجمع نحور ، وتطلق النحور على الصدور .

(٢) ١٥٣ : الشعراء .

(٣) ١٥٤ : الشعراء

(٤) ٨١ : يونس

(٥) ١١٦ : الأعراف

(٦) ١١٦ : الأعراف .

موهوا عليهم ، حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى . وقال تعالى : ﴿ **يُخَيَّلُ إليه من سِحْرِهِم أنها تسعى** ﴾[1] .

وقد يستعمل مقيدًا فيما يمدح ويحمد . روى أنه قدم على الرسول ﷺ ، الزِّبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، فقال لعمرو خبرنى عن الزِّبرقان فقال :

مطاع فى ناديه ، شديد العارضة[2] ، مانع لما وراء ظهرِه .

فقال الزبرقان : هو - والله - يعلم أنى أفضل منه ، فقال عمرو : إنه زَمِنُ المروءة[3] ، ضيق العطن[4] ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، يارسول الله صدقت فيهما .

أرضانى فقلت أحسن ما علمت !

وأسخطنى فقلت أسوأ ما علمت !

فقال الرسول ﷺ : « **إن من البيان لسحراً** »

فسمى النبى ﷺ بعض البيان سحرا ؛ لأن صاحبه يوضح الشىء المشكل ، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ، وبليغ عبارته .

كيف يجوز تسمية مايوضح الحق سحرا ؟

فإن قيل : كيف يجوز أن يسمى مايوضح الحق وينبىء عنه سحرا ؟ وهذا القائل إنما قصد إظهار الخفى ، لا إخفاء الظاهر ، ولفظ السحر إنما يفيد إخفاء الظاهر ؟

(١) ٦٦ : طه .

(٢) يقال فلان ذو عارضة وهى البديهة ، وقيل الصرامة . أساس البلاغة - للزمخشرى

(٣) أى مبتلًى ، ومن المجاز : أزمن عنى عطاؤك : أى أبطأ على ، ويقصد أنه قليل المروءة .

(٤) العطَن : وطن الإبل ومبركها حول الحوض ، ومربض الغنم حول الماء ، ويقال فى المدح : رحب العطن : كثير المال ، واسع الرحل ، رحب الذراع ، وفى الذم يقال : ضيق العطن أى لايملك شيئا وليس منْ ذوى المال والثراء .

قلنا : إنما سماه سحرا لوجهين :

الأول : أن ذلك القدر للطفه ، وحسن استمال القلوب ؛ فأشبه السحر الذى يستميل القلوب ؛ فمن هذا الوجه سمى سحرا ، لا من الوجه الذى ظننت .

الثانى : أن المقتدر على البيان يكون قادرًا على تحسين ما يكون قبيحا وتقبيح مايكون حسنا ، فذلك يشبه السحر من هذا الوجه .

* * *

المسألة الثالثة

الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه

النوع الأول : سحر الكلدانيين والكسدانيين .

النوع الثانى : سحر أصحاب الأوهام والنفس القوية .

النوع الثالث : الاستعانة بالأرواح الأرضية .

النوع الرابع : التخيلات والأخذ بالعيون .

النوع الخامس : الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة ، وعلى ضروب الخيلاء أخرى .

النوع السادس : الاستعانة بخواص الأدوية .

النوع السابع : تعليق القلب .

النوع الثامن : السعى بالنميمة والتضريب .

المسألة الثالثة فى أقسام السحر

اعلم أن السحر على أقسام :

النوع الأول : سحر الكلدانيين[1] والكسدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر

وهم قوم يعبدون الكواكب ، ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور ، والسعادة والنحوسة ، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم – عليه السلام – مُبْطلا لمقالتهم ، ورادًّا عليهم فى مذاهبهم .

رأى المعتزلة :[2]

أما المعتزلة – فقد اتفقت كلمتهم على أن غير الله تعالى لايقدر على خلق الجسم والحياة واللون والطعم .

واحتجوا بوجوه كثيرة ذكرها القاضى ولخصها فى تفسيره وفى سائر كتبه[3] .

---

(١) قامت فى بلاد مابين النهرين حضارة الأشوريين فى الشمال ، ومركزها أشور ونينوى ، وفى الجنوب حضارة الكلدانيين ، ومركزها بابل .

(٢) المعتزلة : نشئوا من فريق فى جيش على ، واعتزلوا السياسة . وقيل : سموا بذلك ، لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصرى ، وعلى رأسهم واصل بن عطاء . ومن الأصول التى يقوم عليها مذهبهم – قولهم بالوعد والوعيد ، فمن خرج من الدنيا عن طاعة وتوبة يثاب ، ومن خرج من الدنيا من غير توبة يعاقب ؛ فهم يربطون الثواب والعقاب بالأعمال ربطا حتما ، وقد تفرع على ذلك القول بالمنزلة بين المنزلتين فى مؤمن ارتكب كبيرة .. حيث يرى الخوارج أنه يُكفر ، وقال المرجئة بتأجيل الحكم إلى يوم القيامة .

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه : مقدمة فى أصول التفسير : فى مجال الحديث عمَّن يتأولون مايخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه .. ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرهم ، وهذا كالمعتزلة مثلا ؛ فإنهم من أعظم الناس كلاما =

ونحن ننقل تلك الوجوه ، وننظر فيها .

أولها : وهو النكتة العقلية التى عليها يؤولون[1] : أنَّ كلَّ ماسوى الله ، إما متحيز ، وإما قائم بالمتحيز .

فلو كان غير الله فاعلا للجسم والحياة ، لكان ذلك الغير متحيزا ، وذلك المتحيز لابد أن يكون قادرا بالقدرة ؛ إذ لو كان قادرا لذاته لكان كل جسم كذلك بناء على أن الأجسام متماثلة ، لكن القادر بالقدرة لايصح منه فعل الجسم والحياة ، ويدل عليه وجهان :

الأول — أن العلم الضرورى حاصل بأن الواحد منا لايقدر على خلق الجسم والحياة ابتداء ؛ فقدرتنا مشتركة فى امتناع ذلك عليها ، فهذا الامتناع حكم مشترك ؛ فلابد له من علة مشتركة ، ولا مشترك هاهنا إلا كوننا قادرين بالقدرة ، وإذا ثبت هذا فيمن كان قادرا بالقدرة أن يتعذر عليه فعل الجسم والحياة .

الثانى — أن هذه القدرة التى لنا لاشك أن بعضها يخالف بعضا فلو كانت قدرتنا قدرة صالحة لخلق الجسم والحياة ، لم تكن مخالفتها لهذه القدرة أشد من مخالفة بعض هذه القدرة للبعض . فلو كفى ذلك القدر من المخالفة فى صلاحيتها لخلق الجسم والحياة لوجب فى هذه القدرة أن يخالف بعضها بعضا وأن تكون صالحة لخلق الجسم والحياة .

= وجدالا ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير عبدالرحمن بن كيسان الأصم ، شيخ إبراهيم ابن إسماعيل بن علية الذى كان يناظر الشافعى ، ومثل كتاب أبى على الجبائى والتفسير الكبير للقاضى عبدالجبار بن أحمد الهمدانى ، والتفسير لعلى بن عيسى الرمانى ، والكشاف لأبى القاسم الزمخشرى ، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة . وأصول المعتزلة خمسة : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(١) التأويل : صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر .

ويقول ابن فارس فى كتابه « الصاحبى » معانى العبارات التى يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : المعنى ، والتفسير ، والتأويل . وهى وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة .

ولما لم يكن ذلك،علمنا أن القادر بالقدرة لايقدر على خلق الجسم والحياة .

وثانيها – أنا لو جوزنا ذلك لتعذر الاستدلال بالمعجزات على النبوات ؛ لأنَّا لو جوزنا استحداث الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية ، لم يمكنا القطع بأن هذه الخوارق[1] التى ظهرت على أيدى الأنبياء عليهم السلام صدرت عن الله تعالى ، بل يجوز فيها أنهم أَتَوْا بها عن طريق السحر ، وحينئذ يبطل القول بالنبوات من كل الوجوه .

وثالثها – أنا لو جوزنا أن يكون فى الناس من يقدر على خلق الجسم والحياة والألوان لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب ! ، لكنا نرى من يدعى السحر متوصلا إلى اكتساب الحقير من المال بجهد جهيد ؛ فعَلِمْنا كذبه ؛ وبهذا الطريق نعلم فساد ما يدعيه قوم من الكيمياء ؛ لأنا نقول : لو أمكنهم ببعض الأدوية أن يقلبوا غير الذهب ذهبا ، لكان إما أن يمكنهم ذلك بالقليل من الأموال ، فكان ينبغى أن يغنوا أنفسهم بذلك عن المشقة والذلة . أولا يمكنهم إلا بالآلات العظام والأموال الخطيرة ، فكان يجب أن يظهروا ذلك للملوك المتمكنين من ذلك ، بل كان يجب أن يفطن الملوك لذلك ؛ لأنه أنفع لهم من فتح البلاد الذى لايتم إلا بإخراج الأموال والكنوز .

وفى علمنا بانصراف النفوس والهمم عن ذلك دلالة على فساد هذا القول .

قال القاضى[2] : فثبت بهذه الجملة أن الساحر ، لايصح أن يكون فاعلا لشىء من ذلك .

(١) الأمور المخالفة للعادة والواقع المألوف ، ولا يقدر على القيام بها الإنسان العادى .

(٢) القاضى عبدالجبار بن أحمد الهمدانى فى تفسيره الكبير الذى جاء على أصول مذهب الاعتزال .

ضعف هذه الدلائل والرد عليهم[1]

واعلم أن هذه الدلائل ضعيفة جدا .

أما الوجه الأول فنقول :

ما الدليل على أن كل ما سوى الله ، إما أن يكون متحيزا ، وإما قائما بالمتحيز ؟ أما علمتم أن الفلاسفة مصرون على إثبات العقول والنفوس الفلكية والنفوس الناطقة ، وزعموا أنها فى أنفسها ليست بمتحيزة ولا قائمة بالمتحيز ؛ فما الدليل على فساد هذا القول بهذا ؟

فإن قالوا : لو وجد موجود هكذا لزم أن يكون مثلا لله تعالى . قلنا : لا نسلم ذلك ؛ لأن الاشتراك فى الأسلوب لايقتضى الاشتراك فى الماهية . سَلَّمنا ذلك لكن لم لايجوز أن يكون بعض الأجسام يقدر على ذلك لذاته ؟

قوله الأجسام متماثلة . فلو كان جسم كذلك لكان كل جسم كذلك . قلنا : ما الدليل على تماثل الأجسام ؟

فإن قالوا : إنه لا معنى للجسم إلا الممتد فى الجهات ، الشاغل للأحياز[2] ولا تفاوت بينها فى هذا المعنى .

قلنا : الامتداد فى الجهات ، والشغل للأحياز صفة من صفاتها ، ولازم من لوازمها ، ولا يبعد أن تكون الأشياء المختلفة فى الماهية مشتركة فى بعض اللوازم .

---

(١) قلنا فى التقديم : إن الفخر الرازى عندما يستدل بآراء المعتزلة لا يأتى بها فى تفسيره إلا لكى يرد عليها ويفندها .

ويقول « جولد تسهر » عن الرازى « وقد عمد المتكلم الكبير ، والفيلسوف الدينى فخرالدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ١٢٠٩ م فى تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » - الذى ينبغى عده خاتمة أدب التفسير المثمر الأصيل -- إلى الاستمرار على ملاحظة ماتستنبطه مدرسة المعتزلة عن طريق التفسير ، والرد عليها من حين إلى آخر بطريقة وافية » قصة التفسير - أحمد الشرباصى .

(٢) الأحياز : جمع حيز .. وتحيَّز الشيءُ : انحصر فى مكان دون آخر .

سلمنا أنه يجب أن يكون قادرا بالقدرة ، فلم قلتم إن القادر بالقدرة لايصح منه خلق الجسم والحياة ؟

قوله : لأن القدرة التى لنا مشتركة فى هذا الامتناع ، وهذا الامتناع حكم مشترك ؛ فلابد له من علة مشتركة ، ولا مشترك سوى كوننا قادرين بالقدرة .

قلنا : هذه المقدمات بأسرها ممنوعة ؛ فلا نسلم أن الامتناع حكم معلل ، وذلك أن الامتناع عدمى ، والعدم لا يُعلَّل .

سلمنا أنه أمر وجودى ، ولكن من مذهبهم أن كثيرا من الأحكام لا يعلل .

فلم لايجوز أن يكون الأمر هنا كذلك ؟

سلمنا أنه معلل ، فلم قلتم : إن الحكم المشترك لابد له من علة مشتركة ؟

أليس أن القبح حصل فى الظلم معللا بكونه ظلما ، وفى الكذب بكونه كذبا ، وفى الجهل بكونه جهلا ؟

سلمنا أنه لابد من علة مشتركة ، لكن لا نسلم أنه لا مشترك إلا كوننا قادرين بالقدرة ، فلم لايجوز أن تكون هذه القدرة التى لنا مشتركة فى وصف معين ، وتلك القدرة التى تصلح لخلق الجسم تكون خارجة عن ذلك الوصف فما الدليل على أن الأمر ليس كذلك ؟

وأما الوجه الأول : وهو أنه ليست مخالفة تلك القدرة لبعض القدر أشد من مخالفة بعض هذه القدر للبعض .

فنقول : هذا ضعيف ؛ لأنا لا نعلل صلاحيتها لخلق الجسم بكونها مخالفة لهذا القدر ؛ بل لخصوصيتها المعينة التى لأجلها خالفت سائر القدر . وتلك الخصوصية معلوم أنها غير حاصلة فى سائر القدر .

ونظير ما ذكروه أن يقال : ليست مخالفة الصوت للبياض بأشد من مخالفة السواد للبياض ، فلو كانت تلك المخالفة مانعة للصوت من صحة أن يرى لوجب لكون السواد مخالفا للبياض أن يمتنع رؤيته .

ولما كان هذا الكلام فاسدا . فكذا ما قالوه .

والعجب من القاضى ! أنه لِمَ حكى هذه الوجوه عن الأشعرية[1] فى مسألة الرؤية وزَيَّفَها بهذه الأسئلة ، ثم إنه تمسك بها فى هذه المسألة التى هى الأصل فى إثبات النبوة ، والرد على من أثبت متوسطا بين الله وبيننا .

أما الوجه الثانى : وهو أن القول بصحة النبوات لايبقى مع تجويز هذا الأصل فنقول :

إما أن يكون القول بصحة النبوات متفرعا عن فساد هذه القاعدة أو لا يكون .

فإن كان الأول امتنع فساد هذا الأصل بالبناء على صحة النبوات وإلا وقع الدور .

وإن كان الثانى فقد سقط هذا الكلام بالكُلّيَّة . وأما الوجه الثالث ، فلقائل أن يقول : الكلام فى الإمكان غير مسلم فنحن لا نقول بأن هذه الحالة حاصلة لكل أحد ؛ بل هذه الحالة لا تحصل للبشر إلا فى الأعصار[2] المتباعدة ، فكيف يلزمنا ما ذكرتموه ؟

فهذا هو الكلام فى النوع الأول من السحر .

* * *

(١) الذين ينتمون إلى أبى الحسن الأشعرى .. نشأ على الاعتزال ونما عليه وتشبع به حتى إذا أراد الله أن يغير الحال انقلب أمر أبى الحسن الأشعرى فأصبح داعية لأهل السنة والجماعة فأطلق عليه أهل السنة الإمام لأنهم بدءوا يشعرون بنجاح خطته حتى رضوا بأن يقال لأهل السنة والجماعة أشعرية وانتقل من البصرة إلى بغداد ومازال مثابرا على مناظرة كل من يقاوم أهل السنة حتى توفاه الله ببغداد سنه ٣٢٤ هـ

الأعصار : جمع عصر وهو الزمن ، ويقصد فى أزمنة متباعدة .

النوع الثانى من السحر

سحر أصحاب الأوهام والنفس القوية

قالوا : اختلف الناس فى أن الذى يشير إليه كل أحد بقوله : « أنا » ماهو ؟

فمن الناس من يقول : إنه هذه البِنْيَة[1]

ومنهم من يقول : إنه جسم صار فى هذه البنية .

ومنهم من يقول : بأنه موجود وليس بجسم ، ولا بجسمانى .

أما إذا قلنا : بأن الإنسان هو هذه البنية ؛ فلاشك أن هذه البنية مركبة من الأخلاط الأربعة[2]، فلم لا يجوز أن يتفق فى بعض الأعصار الباردة أن يكون مِزاجه مِزاجا من الأمزجة فى ناحية من النواحى يقتضى القدرة على خلق الجسم والعلم بالأمور الغائبة عنا والمتعذرة .

وهكذا الكلام إذا قلنا : الإنسان جسم سار فى هذه البنية . أما إذا قلنا : إن الإنسان هو النفس ، فلم لايجوز أن يقال : النفوس مُختلفة ، فيتفق فى بعض النفوس إن كانت لذاتها قادرة على هذه الحوادث الغريبة مطلعة على الأسرار الغائبة .

فهذا الاحتمال مما لم تقم دلالة على فساده سوى الوجوه المتقدمة ، وقد قام بطلانها .

ثم الذى يؤكد هذا الاحتمال وجوه :

أولها : أن الجذع الذى يتمكن الإنسان من المشى عليه لو كان موضوعا على الأرض لايمكنه المشى عليه لو كان كالجسر على هاوية تحته ، وما ذاك

---

(١) البنية : الفطرة ، والشكل والهيئة ويقال : فلان صحيح البنية ، وبِنْيَةُ الكلمة صيغتها والمادة التى تبنى منها . (٢) أخلاط الجسم فى عرف الأقدمين : الدم ، والبلغم ، والسوداء ، والصفراء .

إلا لأن تَخَيُّلَ السقوط متى قَوِيَ – أوجبه[١] .

وثانيهما : اجتمعت الأطباء على نهى المرعوف[٢] عن النظر إلى الأشياء الحمر . والمصروع[٣] عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران . وماذاك إلا أن النفوس خلقت مطيعة للأوهام[٤] .

وثالثها : حكى صاحب الشفاء عن أرسطو فى طبائع الحيوان : أن الدجاجة إذا تشبهت كثيرا بالدِّيَكة فى الصوت وفى الجِراب[٥] مع الديكة ، نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك .

قال صاحب الشفاء[٦] : وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسية .

ورابعها : أجمعت الأمم على أن الدعاء اللسانى الخالى عن الطلب النفسانى قليل العمل ، عديم الأثر ؛ فدل ذلك على أن للهمم والنفوس آثارًا ، وهذا الاتفاق غير مختص بمسألة معينة وحكمة مخصوصة .

وخامسها : أنك لو أنصفت لعلمت أن المبادىء القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلا التصورات النفسانية ؛ لأن القوة المحركة المغروزة فى العضلات صالحة للفعل وتركه أو ضده ، ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر

---

(١) متى يتخيل الإنسان السقوط ، ويقوى فى نفسه هذا التخيل ، يستولى عليه فيسقط .

(٢) المرعوف : من أصيب برعاف الأنف ونزف الدم منه .

(٣) من يصاب بنوبات صرع تفقده توازنه ؛ مما يجعله محتاجا إلى الهدوء .

(٤) ويدل على ذلك التجاربُ التى أجريت على فريق من الرجال والنساء حيث أخبروا مرة أنهم سيتناولون ماء فيه مخدر يفقدهم الوعى مدة معينة فلما شربوا غابوا جميعا عن وعيهم ولم يكن فى الماء مخدر وماذاك إلا بفعل الوهم . وجرب أن تخبر إنسانا بأن ما تناوله من طعام كان قد وقع فيه مايؤذى ستجده على الفور يتقايأ ويشعر بآلام فى المعدة ، وماذاك إلا بفعل الأوهام .

(٥) الجراب : التقاتل .

(٦) القاضى عياض .

إلا لمرجح ، وماذاك إلا تصور كون الفعل جميلا أو لذيذا ، أو تصور كونه قبيحا ، أو مؤلما ، فتلك التصورات هى المبادىء لصيرورة القوى العضلية مبادىء للفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة(١) .

وإذا كانت هذه التصورات هى المبادىء لمبادىء هذه الأفعال ، فأى استبعاد فى كونها مبادىء لأفعال أنفسها ، وإلغاء الواسطة عن درجة الاعتبار .

وسادسها : التجربة والعَيان(٢) شاهدان بأن هذه التصورات مبادىء قريبة لحدوث الكيفيات فى الأبدان ؛ فإن الغضبان تشتد سخونة مِزاجه حتى أنه يفيد سخونة قوية(٣) .

يحكى أن بعض الملوك عرض له فالج(٤) ، فأعيا الأطباء مزاولة علاجه ، فدخل عليه بعض الحذاق منهم على حين غفلة منه وشافهه(٥) بالشتم والقدح فى العرض ؛ فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية ؛ لما ناله من شدة ذلك الكلام ؛ فزالت تلك العلة المزمنة المهلكة . وإذا جاز كون التصورات مبادىء لحدوث الحوادث فى البدن ؛ فأى استبعاد من كونها مبادىء لحدوث الحوادث خارج البدن ؟!

وسابعها : أن الإصابة بالعين أمر قد اتفق عليه العقلاء ، وذلك أيضا يحقق إمكان ما قلناه .

---

(١) عندما يكون الشىء كامنا نقول : هو موجود بالقوة ، وعندما يظهر ويتحقق ويشاهد ويلمس ويحس نقول : هو موجود بالفعل فإذا كان لديك حجران فالنار موجودة فيهما بالقوة فإذا أحدثت احتكاكا بينهما وجدت النار بالفعل .

(٢) العيان : المعاينة والرؤية . ويقولون : ليس الخبر كالعيان .

(٣) وذلك بسبب مايحدثه الغضب من ثورة واندفاع ، وفى الحديث الشريف « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار وإنما تطفأ النار بالماء » .

(٤) الفالج : داء يحدث فى أحد شقى البدن ، فيبطل إحساسه وحركته وهو ما نسميه بلغة العصر . الشلل النصفى .

(٥) كلمه وخاطبه شفاها ومشافهة أى كلاما صادرا عن الشفتين ، وليس كتابة ، ولذلك يقولون عن الكلمة : بنت شفه . ويقال للصامت : لم ينبس ببنت شفه .

إذا عرفت هذا فنقول : النفوس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدا ، فتستغنى فى هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات ، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات . وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم [السماء] كانت كأنها روح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم .

أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية فحينئذ لايكون لها تصرف أَلبتَّةَ إلا فى هذا البدن !

فإذا أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثير من بدنها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووضعه عند الحس واشتغل الحس به فيتبعه الخيال عليه ، وأقبلت النفس الناطقة عليه فقويت التأثيرات النفسية ، والتصرفات الروحانية ؛ ولذلك أجمعت الأمم على أنه لابد لمزاولة هذه الأعمال من انقطاع المألوفات والمشتهيات ، وتقليل الغذاء ، والانقطاع عن مخالطة الخلق .

وكلما كانت هذه الأمور أتم ، كان ذلك التأثير أقوى ، فإذا اتفق أن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر نظرا إلى ماهيتها وخاصيتها عظم التأثير ، والسبب المتعين فيه أن النفس إذا اشتغلت بالجانب الأول ، أَشْغَلَتْ جميع قوتها فى ذلك الفعل ، وإذا اشتغلت بالأفعال الكثيرة ، تفرقت قوتها وتوزعت على تلك الأفعال لتصل إلى كل واحد من تلك الأفعال شعبة من تلك القوة ، والجدول من ذلك النهر ؛ ولذلك نرى أن إنسانين يستويان فى قوة الخاطر إذا اشتغل أحدهما بصناعة واحدة ، واشتغل الآخر بصناعتين فإن [ذا الفن] الواحد يكون أقوى من ذى الفنين ، ومن حاول الوقوف على حقيقة مسألة من المسائل ، فإنه حال تفكره فيها لابد وأن يفرغ خاطره عما عداها فإنه عند تفريغ الخاطر يتوجه الخاطر بكليته إليه ؛ فيكون الفعل أسهل وأحسن وإذا كان

---

(١) الجدول : النهر الصغير ، ونتمتع بالجداول بين الحقول ، وهو متشعب من النهر ، فليس له قوته وتأثيره .

كذلك ، فإذا كان الإنسان مشغول الهم والهمة بقضاء اللذات وتحصيل الشهوات كانت القوة النفسانية مشغولة بها مستغرقة فيها فلا يكون انجذابها إلى تحصيل الفعل الغريب الذى يحاوله انجذابا قويا لاسيما وها هنا آفة أخرى وهى : أن مثل هذه النفس قد اعتادت الاشتغال باللذات من أول أمرها إلى آخره ، ولم تشتغل قَطُّ باستحداث هذه الأفعال الغريبة ، فهى بالطبع حنون إلى الأول ، عَزُوفٌ[1] عن الثانى . فإذا وجدت مطلوبها من النمط الأول فأنَّى[2] تلتفت إلى الجانب الآخر ؟

فقد ظهر من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتى إلا مع التجرد عن الأحوال الجسمانية ، وترك مخالطة الخلق ، والإقبال بالكلية على عالم الصفاء والأرواح .

الــرُّقَى :[3]

وأما الرق : فإن كانت معلومة ، فالأمر فيها ظاهر ؛ لأن الغرض منها أن حِسَّ البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة لذلك الغرض ، فإن الحواس متى تطابقت على التوجه إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه حينئذ أقوى ، وأما إن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ، فإن الإنسان إذا اعتقد أن هذه الكلمات إنما تقرأ للاستعانة بشىء من الأمور الروحانية ، ولا يُدْرَى كيفية تلك الاستعانة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ويحصل للنفس فى أثناء ذلك انقطاع عن

(١) عزوف : عكس حنون ، يقال عزف عن الشىء انصرف عنه وعافه .
(٢) أنَّى : اسم استفهام بمعنى من أين ؟
(٣) جمع رُقْيَة ؛ وهى العُوذَة . وهو رقَّاء : نفث فى عوذته .
وهى كما يقول المنجد : الاستعانة – للحصول على أمر – بقوى تفوق القوى الطبيعية .

المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل ، وجد عظيم ، فيقوى التأثير النفساني ، فيحصل الغرض .

وهكذا القول فى الدَّخَن ، قالوا : فقد ثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مشتغل بالتأثير ، فإن انضم إليه النوع الأول من السحر ، وهو الاستعَانة بالكواكب وتأثيراتها عظم التأثير ، بل ههنا نوعان آخران : الأول – أن النفوس التى فارقت الأبدان قد يكون فيها ما هو شديد المشابهة لهذه النفوس فى قوتها وفى تأثيراتها ، فإذا صارت تلك النفوس صافية لم يبعد أن ينجذبَ إليها ما يشابهها من النفوس المفارقة ، ويحصل لتلك النفوس نوع ما من التعلق بهذا البدن فتتعاضد النفوس الكثيرة على ذلك الفعل ، وإذا كملت القوة وتزايدت قوى التأثير .

الثانى : أن هذه النفوس الناطقة ، إذا صارت صافية عن الكدورات البدنية صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية ، والنفوس الفلكية ، فتقوى هذه النفوس بأنوار تلك الأرواح ، فتقوى على أمور غريبة خارقة للعادة ، فهذا سحر أصحاب الأوهام والرقى .

* * *

النوع الثالث من السحر
الاستعانة بالأرواح الأرضية

القول بالجن :

واعلم أن القول بالجن مما أنكره بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة .

أما أكابر الفلاسفة ؛ فإنهم ما أنكروا القول به ، إلا أنهم سموها بالأرواح[1] الأرضيّة .

(١) فى مقابلة الأرواح العلوية التى يراد بها الملائكة فكأن لدينا أرواحا أرضية سفلية [الجن] ، وأرواحا علوية سماوية [الملائكة] .

وهى فى أنفسها مختلفة ، منها خيرة ، ومنها شريرة ، فالخيِّرة : هم مؤمنو الجن ، والشريرة : هم كفار الجن وشياطينهم ،

ثم قال الخلف منهم : هذه الأرواح جواهر قائمة بأنفسها لامُتَحيِّزَة ، ولا حالَّة فى المتحيز ، وهى قادرة عالمة مدركة للجزئيات واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية .

إلا أن القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة إليها بسبب اتصالها بتلك الأرواح السماوية .

أما أن الاتصال أسهل ؛ فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضية أسهل ؛ ولأن المشابهة والمشاكلة بينهما أتم وأشد من المشاكلة بين نفوسنا وبين الأرواح السماوية .

وأما أن القوة بسبب الاتصال بالأرواح السماوية أقوى ؛ فلأن الأرواح السماوية هى بالنسبة إلى الأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة ، والبحر بالنسبة إلى القطرة ، والسلطان بالنسبة إلى الرعية .

قالوا : وهذه الأشياء وإن لم يقم على وجودها برهان قاهر ، فلا أقل من الاحتمال والإمكان .

ثم إن أصحاب الصنعة ، وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد . فهذا النوع هو المسمي : بـ « العزائم وعمل تسخير الجن » .

* * *

النوع الرابع من السحر
التخيلات والأخذ بالعيون

وهذا الأخذ مبنى على مقدمات :

إحداها : أن أغلاط البصر كثيرة ؛ فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشطر متحركا . وذلك يدل على أن الساكن يُرى متحركا والمتحرك يُرى ساكنا ، والقطرة النازلة ترى خطًّا مستقيما . والذُّبالة[1] التى تدار بسرعة ترى دائرة ، والعنبة تُرى فى الماء كبيرة كالإجاصة[2] ، والشخص الصغير يرى فى الضباب عظيما ، وكبخار الأرض الذى يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيما ، فإذا فارقته وارتفعت عنه صغرت ، وأما رؤية العظيم من البعيد صغيرا فظاهر .

فهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفا تاما إذا أدركت المحسوس فى زمان له مقدارٌ مَّا ؛ فأما إذا أدركت المحسوس فى زمان صغير جدًّا ، ثم أدركت بعده محسوسا آخر ، وهكذا فإنه يختلط البعض بالبعض ، ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض وذلك فإن الرَّحَى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطا كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارت ، فإن الحس يرى لونا واحدًا كأنه مركب من تلك الألوان .

وثالثها : أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء ، فربما حضر عند الحس شيء آخر ، ولا يشعر الحس به ألبتَّةَ ، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان

(١) الذبالة : الفتيلة .

(٢) الإجاص : شجر ثمره لذيذ حلو واحدته (إجاصة) ، يسهل الصفراء ويسكن العطش ، وحرارة القلب ، وأجوده الحلو الكبير ، ويقول القاموس المحيط والإجاصُ : المشمش : والكمثرى بلغة الشاميين .

قد يلقاه إنسان آخر ، ويتكلم معه ، فلا يعرفه ، ولا يفهم كلامه ؛ لما أن قلبه مشغول بشيء آخر ، وكذا الناظر فى المرآة فإنه ربما قصد أن يرى قذاة[1] فى عينه فيراها ولايرى ما هو أكبر منها إن كان بوجهه أثر ، أو بجبهته أو بسائر أعضائه التى تقابل المرآة .

وربما قصد أن يرى سطح المرآة هل هو مستو أم لا ؟ فلا يرى شيئا مما فى المرآة .

إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر ، وذلك لأن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك ، والتحديق نحوه عمل شيئا آخر عملا بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفيا لتفاوت الشيئين :

أحدهما : اشتغالهم بالأمر الأول .

والثانى : سرعة الإتيان بهذا العمل الثانى ، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدا ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد مايريد أن يعمله ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه ، لفطن الناظرون لكل مايفعله فهذا هو المراد من قولهم : إن المشعبذ يأخذ بالعيون ؛ لأنه بالحقيقة يأخذ العيون إلى غير الجهة التى يحتال فيها ، وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى ، كان أحذق فى عمله .

وكلما كانت الأحوال التى تفيد حسَّ البصر نوعا من أنواع الخلل أشد كان هذا العلم أحسن ، مثل أن يجلس المشعبذ فى موضع مضيء جدا ، فإن البصر يفيد البصر كلالا واختلالا .

---

(١) قال فى المنجد : قذيت عينه : وقع فيها القذى ، وصار فيها الوسخ .

ويقول الفيومى : أقذيتها : ألقيت فيها القذى ، وقذَّيتها : أخرجته منها وقذت العين : ألقت ما فيها .

كذا الظلمة الشديدة ، وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالا واختلالا ، والألوان المظلمة قلما أعانت القوة - الباصرة على أحوالها .

فهذا مجامع القول فى هذا النوع من السحر .

* * *

النوع الخامس من السحر

الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة على النِّسَب الهندسية تارة وعلى ضروب الخيلاء أخرى

مثل فارسين يقتتلان ، فيقتل أحدهما الآخر ، وكفارس على فرس فى يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسَّه أحد .

ومنها الصور التى يصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان ، حتى يصوروها ضاحكة وباكية ، حتى يفرق المرء بين ضحك السرور ، وبين ضحك الخجل ، وضحك الشامت ، فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل[1] . وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب .

ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات .

ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال ، وهو أن يجر ثِقْلا عظيما بآلة خفيفة سهلة .

---

(١) وربما كان منه تلك العرائس والدُّمَى اليابانية التى تؤدى التحية وتحرك القدمين واليدين ، وتشير بالعينين ، وترد على التحية .

وربما كان منه الإنسان الآلى وما أشبهه فى عصرنا من كل عجيب غريب .

وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر ؛ لأن له أسبابا معلومة ، ويقوم على نظريات علمية .

وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يُعد من باب السحر لأن له أسبابا معلومة نفيسة من اطلع عليها قدر عليها .

إلا أن الاطلاع عليها لما كان عسيرا شديدًا لايصل إليه إلا الفرد بعد الفرد لا جَرَم[1] عد أهل الظاهر ذلك من باب السحر

عمل « أرجعيانوس » الموسيقار فى هيكل أورشليم :

ومن هذا الباب عمل « أرجعيا نوس » الموسيقار فى هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه .

وذلك أنه اتفق له أنه كان مجتازًا بفلاة[2] من الأرض فوجد فيها فرخا من فراخ (البراصل) . والبراصل هو طائر عطوف ، وكان يصفر صفيرا حرينا بخلاف سائر البراصل ، وكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون فتطرحها عنده فيأكل بعضها عند حاجته ، ويفضل بعضها عن حاجته . فوقف هذا الموسيقار هناك وتأمل حال ذلك الفرخ وعلم أن فى صفيره المخالف لصفير البراصل ضربا[3] من التوجع والاستعطاف حتى رقت له الطيور ، وجاءته بما يأكله ، فتلطف بعمل آلة تشبه الصفارة إذا استقبل الريح بها أدت ذلك الصفير ، ولم يزل يجرب ذلك حتى وثق بها وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجىء إلى ذلك الفرخ ؛ لأنها تظن أن هناك فرخا من جنسها فلما صح له ما أراد أظهر النسك وعمد إلى هيكل أورشليم ، وسأل عن الليلة التى دفن فيها « الاسطرخس » الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل ، فأخبر أنه دفن فى أول ليلة من آب ، فاتخذ صورة من زجاج مجوف على هيئة البرصلة ، ونصبها فوق ذلك

---

(١) لا جرم : بفتح الجيم والراء ، أو بضم الجيم وسكون الراء – أى لابد أو لا محالة أو حقا . وقد تحول إلى معنى القسم فيقال : لا جرم لأفعلنَّ . المنجد

(٢) الفلاة : الصحراء الواسعة . جمعها فلوات .

(٣) لونًا ونوعا .

الهيكل ، وجعل فوق تلك الصورة قبة ، وأمرهم بفتحها فى أول آب ، وكان يظهر صوت البرصلة بسبب نفوذ الريح فى تلك الصورة وكانت البراصل تجىء بالزيتون حتى كانت تمتلىء تلك القبة كل يوم من ذلك الزيتون ، والناس اعتقدوا أنه من كرامات ذلك المدفون !

ويدخل فى الباب أنواع كثيرة لا يليق شرحها فى هذا الموضع .

النوع السادس من السحر

الاستعانة بخواص الأدوية

مثل أن يجعل فى طعامه بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل والدخن المسكرة نحو دماغ الحمار إذا تناوله الإنسان تبلد عقله ، وقلت فطنته !

واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواصِّ ؛ فإن أثر المغناطيس مُشَاهَدٌ ؛ إلا أن الناس قد أكثروا فيه ، وخلطوا الصدق بالكذب ، والباطل بالحق .

النوع السابع من السحر

تعليق القلب

وهو أن يدَّعى الساحر أنه قد عرف الاسم[1] الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور ؛ فإذا اتفق أنْ كان السامع لذلك ضعيفَ العقل ، قليلَ التمييز اعتقد أنه حق ، وتعلق قلبه بذلك ، وحصل فى نفسه نوع من الرعب والمخافة . وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل حينئذ مايشاء ، وإن من جرب الأمور وعرف أحوال أهل العلم ، علم أن لتعلق القلب أثرا عظيما فى تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار :

(١) ورد فى اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى عدة أحاديث ، وأرجح ما ورد فى تعيين الاسم الأعظم – كما يقول الشيخ أحمد عيسى عاشور فى الدعاء الميسر– « اللهم=

النوع الثامن من السحر
السعى بالنميمة والتضريب[1]

السعى بالنميمة والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة ، وذلك شائع فى الناس .

فهذا جملة الكلام فى أقسام السحر ، وشرح أنواعه وأصنافه . والله أعلم

* * *

المسألة الرابعة

فى أقوال المسلمين فى أن هذه الأنواع هل هى ممكنة أم لا ؟

رأى المعتزلة :

أما المعتزلة : فقد اتفقوا على إنكارها ، إلا النوع المنسوب إلى التخيل ، والمنسوب إلى إطعام بعض الأدوية المبلدة ، والمنسوب إلى التضريب والنميمة .

= إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » أخرجه أهل السنن الأربع ، وصححه ابن حبان والحاكم وقال : صحيح الإسناد . قال أبو الحسن المقدسى : وإسناده لا مطعن فيه ، ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود منه إسنادًا .

(١) تضرّبَ الشيء : تحرك . ماج ، وضرّب بينهم أوقع وأفسد ؛ فهذا النوع فيه إيهام بضروب من التخويف والتقريع حتى يصير من به السوداء محكم الاعتقاد فيه ويتمشى بالتضريب والنميمة ، ويحتال فى إيقاع الفرقة بعد الوصلة ، ويوهم أن ذلك بكتابة يكتبها من الاسم الأعظم (الفخر الرازى) .

فأما الأقسام الخمسة الأولى ؛ فقد انكروها ، ولعلهم كفَّروا من قال بها وجَوَّز وجودها .

رأى أهـل السنة :[1]

وأما أهل السنة : فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير فى الهواء ، ويقلب الإنسان حمارًا ، والحمار إنسانا .

إلا أنهم قالوا : إن الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء عندما يقرأ الساحر رُقًى مخصوصة ، وكلمات معينة .

فأما أن يكون المؤثر فى ذلك الفلك والنجوم فلا .

رأى الفلاسفة والمنجمين والصابئة :

وأما الفلاسفة والمنجمون والصابئة[2] فقولهم على ماسلف تقريره .

الرد على الصابئة وبطلان كلْ ما قالوه :

واحتج أصحابنا على فساد قول الصابئة : إنه قد ثبت أن العالم محدَث ، فوجب أن يكون موجدُه قادرًا ، والشيء الذى حكم العقلُ بأنه مقدور إنما يصح أن يكون مقدورًا لكونه ممكنا والإمكان قدر مشترك بين كل الممكنات .

فإذا كل الممكنات مقدور لله تعالى ، ولو وجد شيء من تلك المقدورات بسبب آخر يلزم أن يكون ذلك السبب مزيلا لتعلق قدرة الله تعالى

(١) المراد بالسنة : الطريقة التى كان عليها النبى ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات ، وما كان عليه الجماعة من سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(٢) الصابئة : قوم كانوا يعبدون النجوم والكواكب ، وينسبون إليها الأحداث ووقوع الخوارق .

بذلك المقدور ، فيكون الحادث سببا لعجز الله تعالى وهو محال !!

فثبت أنه يستحيل وقوع شيء من الممكنات إلا بقدرة الله وعنده يبطل كل ما قاله الصابئة .

قالوا : إذا ثبت هذا فندعى أنه يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة ، فقد احتجوا على وقوع هذا النوع من السحر بالقرآن والخبر .

أما القرآن : فقوله تعالى فى هذه الآية ﴿ وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ .

والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه .

وأما الأخبار : فهى واردة عنه ﷺ متواترة وآحادًا[1] :

أحدها : ما روى أنه عليه السلام سُحِرَ ، وأن السحر عمل فيه حتى قال : « إنه نيخيل إلى أنِّى أقول الشيء وأفعله ، ولم أقلْه ، ولم أفْعَلْه » .

وأن امرأة يهودية سحرته ، وجعلت ذلك السحر تحت راعوفة[2] البئر ، فلما استخرج ذلك زال عن النبى ﷺ ذلك العارض ، وأُنزِلَ المعوذتان بسببه .

وثانيها : أن امرأة أتت عائشة رضى الله عنها فقالت : إنى ساجرة فهل لى من توبة ؟ فقالت : وما سِحْرُك ؟ فقالت : صرت إلى الموضع الذى فيه

(١) المتواتر : هو ما نقله جمع عن جمع يُؤْمَن تواطؤهم على الكذب والمتواتر يفيد العلم الضرورى . أى اليقين .

أما الآحاد ، فهو ينقسم إلى عزيز ، ومشهور ، وغريب . فالمشهور ما رواه أكثر من اثنين بحيث لم يجتمع فيه شروط المتواتر عن أكثر من اثنين . وسمى بذلك لاشتهاره ووضوحه ، وقد يشتهر على ألسنة العوام ما ليس له إسناد ، وقد يكون موضوعا .

والعزيز ما تحقق فى رواته اثنان ولو فى طبقة واحدة ، وسمى عزيزا لقلة وجوده . تبسيط علوم الحديث لنجيب المطيعى . والغريب ما تفرد بروايته راو واحد .

(٢) راعوفة البئر : صخرة تُترك فى أسفل البئر إذا احتفرت ليجلس عليها المستقى أو تكون على رأس البئر يقوم عليها المستقى . القاموس .

« هاروت وماروت » ببابل لطلب علم السحر فقالا لى : يا أمة الله ، لا تختارى عذاب الآخرة بأمر الدنيا فأبيْتُ . فقالا لى : اذهبى فبولى على ذلك الرَّماد ؛ فذهبت لأبول عليه ، ففكرت فى نفسى ، فقلت : لا أفعل ، وجئت إليهما ، فقلت : قد فعلت ، فقالا لى : مارأيت لَمَّا فعلت ؟ فقلت : ما رأيت شيئا ، فقالا لى : أنت على رأسِ أمرٍ فاتقى الله ولا تفعلى ، فأبيت ، فقالا لى : اذهبى فافعلى ، فذهبت ففعلت ، فرأيت كأن فارسا مُقَنَّعًا بالحديد قد خرج من فرجى ، فصعد إلى السماء ، فجئتهما فأخبرتهما ، فقالا : إيمانك قد خرج عنك وقد أحسنت السحر ! فقلت : وما هو ؟ قالا : ما تريدين شيئا فتصوريه فى وهمك إلا كان ، فصورت فى نفسى حبا من حِنْطة[1] ؛ فإذا أنا بِحَبٍّ فقلت : انْزرِعْ .. فَانْزَرعَ فخرج من ساعته سُنْبُلاً . فقلت : انطحن .. فانطحن من ساعته ، فقلت : انْخَبِزْ .. فانخبزَ . وأنا لا أريد شيئا أصوره فى نفسى إلا حصل .

فقالت عائشة : ليس لك توبة !!

أدلـة المعتزلة على إنـكاره :

أما المعتزلة فقد احتجوا على إنكاره بوجوه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ **ولا يُفلِحُ الساحرُ حيثُ أتى** ﴾[2]

وثانيها : قوله تعالى فى وصف محمد ﷺ : ﴿ **وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾[3] .

---

(١) قمح ، وبُرّ .

(٢) ٦٩ : طه

(٣) ٨ : الفرقان .

ولو صار عليه السلام مسحورًا لما استحقوا الذم بسبب هذا القول .

وثالثا : أنه لو جاز ذلك من السحر ؛ فكيف يتميز المعجز عن السحر ، ثم قالوا :

هذه الدلائل يقينية ، والأخبار التى ذكرتموها من باب الآحاد فلا تصلح معارضة لهذه الدلائل .

المسألة الخامسة

فى

(أنَّ العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور)

رأى المحققين :

اتفق المحققون على ذلك ؛ لأن العلم لذاته شريف . وأيضا : لعموم[1] قوله تعالى :

﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[2]

ولأن السحر لو لم يكن يُعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز . والعلم بكون المعجز معجزا واجب .

وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب .

فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا ، ومايكون واجبا ، كيف يكون حراما وقبيحا ؟!!

(١) فهى لم تخصص بالتفضيل صنفا معينا من العلماء فى نوع من العلم بل هى عامة .
(٢) ٩ : الزمر .

المسألة السادسة

فى أن الساحر قد يكفر أم لا ؟

اختـــلاف الفقـــهاء :

اختلف الفقهاء فى أن الساحر هل يكفر أم لا ؟

روى عن النبى ﷺ أنه قال :

« من أتى كاهنا[1] ، أو عرافا[2] ، فصدقهما بقول ، فقد كفر بما أُنْزل على محمد » عليه السلام .

إجماع الأمة على كفر مرتكب النوع الأول من السحر :

واعلم أنه لانزاع بين الأمة فى أن من اعتقد أن الكواكب هى المدبرة لهذا العالم ، وهى الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور ، فإنه يكون كافرا على الإطلاق ، وهذا هو النوع الأول من السحر .

رأيـــهم فى النوع الثـــانى :

أما النوع الثانى : وهو أن يعتقد أنه قد يبلغ روح الإنسان فى التصفية والقوة إلى حيث يقدر بها على إيجاد الأجسام والحياة والقدرة وتغيير البنية والشكل .

فالأظهر إجماع الأمة أيضا على تكفيره !!

---

(١) الكاهن : من يدعى معرفة الأسرار ، أو أحوال الغيب .
وعند اليهود وعبدة الأوثان : الذى يقدم الذبائح والقرابين .
وعند النصارى : من ارتقى إلى درجة الكهنوت .

(٢) العراف : هو المنجم ، والمخبر عن الماضى والمستقبل .

رأيهم فى النوع الثالث :

أما النوع الثالث ، وهو أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ فى التصفية وقراءة الرقى ، وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى عقيب أفعاله على سبيل العادة الأجسام والحياة والعقل ، وتغيير البنية والشكل .

فههنا المعتزلة اتفقوا على تكفير من يجوِّز ذلك . قالوا لأنه مع هذا الاعتقاد لايمكنه أن يعرف صدق الأنبياء والرسل . وهذا ركيك[1] من القول .

فإن لقائل أن يقول : إن الإنسان لو ادعى النبوة ، وكان كاذبا فى دعواه فإنه لايجوز من الله تعالى إظهار هذه الأشياء على يده ؛ لئلا يحصل التلبيس .

أما إذا لم يدع النبوة ، وأظهر هذه الأشياء على يده ، لم يُفْض ذلك إلى التلبيس[2] ؛ فإن المحق يتميز عن المُبْطل ، بما أن المحق تحصل له هذه الأشياء ، مع ادعاء النبوة ، والمبطل لاتحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة .

الرأى فى سائر الأنواع :

وأما سائر الأنواع التى عددناها من السحر فلاشك أنه ليس بكفر .

حجة من يقول بالكفر مطلقا والرد عليه :

فإن قيل :

١ - إن اليهود لما أضافوا السحر إلى سليمان قال الله تعالى تنزيها له عنه : ﴿ وما كفر سليمان ﴾

وهذا يدل على أن السحر كفر على الإطلاق .

---

(١) ركيك : ضعيف .

(٢) لَبَّسَ عليه الأمر : خلطه بحيث يصير مشتبها بغيره خافيا فلا يدرى وجه الصواب .

٢ – وأيضا قال : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ وهذا أيضا يقتضى أن يكون السحر على الإطلاق كفرا .

٣ – وحكى عن الملكين أنهما لا يعلمان أحدًا السحر حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

وهذا يدل على أن السحر كفر على الإطلاق[1] .

قلنا : حكاية الحال يكفى فى صدقها صورة واحدة . فنحملها على سحر من يعتقد إلهية[2] النجوم .

المسألة السابعة

فى أنه هل يجب قتلهم أم لا ؟!

أما النوع الأول : وهو أن يعتقد فى الكواكب كونها آلهة مدبرة .

والنوع الثانى : وهو أن يعتقد أن الساحر قد يصير موصوفا بالقدرة على خلق الأجسام ، وخلق الحياة ، والقدرة ، والعقل ، وتركيب الأشكال ؛ فلاشك فى كفرهما !

فالمسلم إذا أتى بهذا الاعتقاد كان كالمرتد يستتاب[3] فإن أصر قتل .

وروى عن مالك وأبى حنيفة أنه لا تقبل توبته .

لنا : أنه أسلم فيقبل إسلامه لقوله ﷺ : « نحن نحكم بالظاهر » .

---

(١) دون تفرقة بين نوع وآخر ، فكلها سحر .

(٢) وهى إحدى صور السحر ، وبذا يكونون صادقين عندما عبروا عن أنفسهم بأنهم فتنة على هذه الصورة .

(٣) يطلب منه إعلان توبته عما بدر منه ، ويعطى مهلة ليراجع فيها نفسه .

النوع الثالث : وهو أن يعتقد أن الله تعالى أجرى عادته بخلق الأجسام والحياة وتغيير الشكل والهيئة عند قراءة بعض الرُّقى وتدخين بعض[1] الأدوية ، فالساحر يعتقد أنه يمكن الوصول إلى استحداث الأجسام والحياة وتغيير الخلقة بهذا الطريق .

رأى المعتزلة والرد عليهم :

وقد ذكرنا عن المعتزلة أنه كفر ؛ قالوا : لأنه مع هذا الاعتقاد لايمكنه الاستدلال بالمعجز على صدق الأنبياء .

وهذا ركيك ، لأنه يقال :

الفرق هو : أن مدعى النبوة ، إن كان صادقا فى دعواه ، أمكنه الإتيان بهذه الأشياء ، وإن كان كاذبا تعذر عليه ذلك ، فهذا يُظْهر الفرق .

إذا ثبت أنه ليس بكافر ، وثبت أنه ممكن الوقوع ، فإذا أتى الساحر بشىء من ذلك ، فإن اعتقد أن إتيانه به مباح كفر ؛ لأنه حكم على المحظور بكونه مباحا ، وإن اعتقد حرمته .

رأى الشافعى :

فعند الشافعي ، رضى الله عنه أن حكمه حكم الجناية[2] :

إن قال : إنى سحرته وسحرى يقتل غالبا يجب عليه (القَوَد)[3]

وإن قال : سحرته وسحرى قد يقتل وقد لايقتل فهو شبه عمد ، وإن قال : سحرت غيره فوافق اسمه ، فهو خطأ تجب الدية مخففة فى ماله ؛ لأنه

(١) البَخُور وما أشبهه مما يلازم ممارسة السحر ويعد من أدوات السحر .

(٢) العدوان على النفس وفى كتب الفقه باب يسمى باب الجنايات . ذكر فيه أنواع ، القتل والاعتداء على الإنسان . من عمد وشبه عمد وخطأ مما فيه عدوان على حق الغير .

(٣) القَوَد : القَوَد بفتح الواو والقاف قبلها.القصاص ، ويقال : أقَاد الأمير القاتل بالمقتول : قتله به قَوَداً .

ثبت بإقراره إلا أن تصدقه العائلة ، فحينئذ تجب عليهم . [هذا تفصيل مذهب الشافعى رضى الله عنه]

رأى أبى حنيــفة النعــمان :

وروى الحسن بن زياد عن أبى حنيفة رحمه الله أنه قال : يُقْتَل الساحر إذا عُلِم أنه ساحر ، ولا يستتاب[1] ولا يقبل قوله : « إنى أترك السحر وأتوب منه » .

وإن أقر بأنى كنت أسحر مرة ، وقد تركت ذلك منذ زمان قبل منه ، ولم يقتل .

وحكى محمد بن شجاع عن على الرازىّ قال : سألت أبا يوسف[2] عن قول أبى حنيفة فى الساحر : يقتل ولا يستتاب . لم يكن ذلك بمنزلة المرتد ؟ فقال :

الساحر جَمَعَ مع كفره السعى فى الأرض بالفساد ومن كان كذلك ، إذا قتَل قُتِل .

حجــة أهل الســنة :

١ - واحتج أصحابنا بأنه لما ثبت أن هذا النوع ليس بكفر فهو فسق ، فإن لم يكن جناية على حق الغير كان الحق هو التفصيل الذى ذكرناه .

(١) لا يطلب منه أن يتوب ؛ فلا خير فيه .

(٢) صاحب أبى حنيفة ومن أعمدة المذهب الحنفى - عربى الأصل - جده سعد بن حبتة أحد الصحابة من الأنصار ، وأخذ الفقه فيمن أخذ على أبى حنيفة ، وكان من أقرب تلاميذه إليه ، ولد سنة ١١٣ - وتوفى سنة ١٨٢ . نشأ فقيرا وكان أبوحنيفة يمده بالمال ، وتولى القضاء لثلاثة من الخلفاء : المهدى ثم الهادى ، ثم هارون الرشيد ، وكان فى أيام الرشيد قاضى القضاة ، وكان عند الرشيد حَظِيّاً مكينا ، وكان موقفه هذا دقيقا محرجا ، وبقاؤه فى هذا المنصب هذا العهد الطويل يدل على لباقة ومرونة فائقتين ، خصوصا إذا أراد أن يجمع بين الدين والمنصب والجاه . [ضحى الإسلام - أحمد أمين] .

٢ - (الثانى) أن ساحر اليهود لايقتل ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام سحره رجل من اليهود يقال له : لبيد بن أعصم ، وامرأة من يهود خيبر يقال لها : زينب فلم يقتلهما فوجب أن يكون المؤمن كذلك ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين » .

٣ - واحتج أبو حنيفة على قوله بأخْبَارٍ[١] :

أحدها - ما روى عن نافع عن ابن عمر أن جارية لحفصة[٢] سحرتها وأخذوها فاعترفت بذلك ، فأمرت عبدالرحمن بن زيد فقتلها ؛ فبلغ عثمان فأنكره ، فأتاه ابن عمر وأخبره أمرها ، فكأن عثمان إنما أنكر ذلك ، لأنها قتلت بغير إذنه .

وثانيها - ما روى عمرو بن دينار أنه ورد كتاب عمر رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، فقتلنا ثلاث سواحر .

وثالثها - قال على بن أبى طالب : إن هؤلاء العرافين ، كهان العجم ، فمن أتى كاهنا يؤمن له بما يقول ، فقد برىء مما أنزل الله على محمد ﷺ .

والجواب : لعل السحرة الذين قُتِلُوا كانوا من الكفرة ؛ فإن حكاية الحال يكفى فى صدقها صورة واحدة .

وأما سائر أنواع السحر : أعنى الإتيان بضروب الشعبذة والآلات العجيبة المبنية على ضروب الخيلاء ، والمبنية على النسب الهندسية ، وكذلك القول فيمن يوهم ضروبا من التخويف والتقريع حتى يصير من به السوداء محكم الاعتقاد فيه ، ويتمشى بالتضريب والنميمة ، ويحتال فى إيقاع الفرقة بعد الوصلة ويوهم أن ذلك بكتابة يكتبها من الاسم الأعظم ، فكل ذلك ليس بكفر .

(١) الأخبار : جمع خبر ، وهو الحديث .
(٢) أم المؤمنين - رضى الله عنها وبنت عمر رضى الله عنه .

وكذلك القول فى دفن الأشياء الوسخة فى دور الناس ، وكذا القول فى إيهام أن الجن يفعلون ذلك . وكذا القول فيمن يدس الأدوية المبلدة فى الأطعمة ، فإن شيئا من ذلك لايبلغ حد الكفر ولا يوجب القتل ألبتَّةَ .

فهذا هو الكلام الكلى فى السحر والله الكافى والواقى .

* * *

موضوعات تتصل بالسحر وتناولها الفخر الرازى

هـل الجن يعلمون الـغيب ؟

يقول الإمام فخرالدين الرازى :

> اختلفوا فى أن الجن هل يعلمون الغيب ؟ .
>
> وقد بين الله تعالى فى كتابه أنهم بقوا فى قيد سليمان عليه السلام وفى حبسه بعد موته مدة ، وهم ما كانوا يعلمون موته . وذلك يدل على أنهم لا يعلمون الغيب ؟ .
>
> ومن الناس من يقولون : إنهم يعلمون الغيب .
>
> ثم اختلفوا :
>
> فقال بعضهم : إن فيهم من يصعد إلى السموات ، أو يقرب منها ، ويخبر ببعض الغيوب على ألسنة الملائكة .
>
> ومنهم من قال : لهم طرق أخرى فى معرفة الغيوب لا يعلمها إلا الله .

رأى الـفخر الـرازى :

واعلم أن فتح الباب فى أمثال هذه المباحث لايفيد إلا الظنون والحسبانات .

والعالِم بحقائقها هو الله سبحانه وتعالى !

الاســتعاذة بالجن وخطــرها

﴿ وأنَّه كانَ رجالٌ من الإنسِ يَعوذونَ برجالٍ من الجن فزَادُوهُم رَهَقًا ﴾

[سورة الجن : ٧]

يقول الإمام فخرالدين الرازى تفسيرا لهذه الآية :

قوله تعالى : **﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ فيه قولان :**

الأول : وهو قول جمهور المفسرين أن الرجل فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى قفر من الأرض قال :

أعوذ بسيد هذا الوادى ، أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه ؛ فيبيت فى جِوَارٍ منهم حتى يصبح .

وقال آخرون : كان أهل الجاهلية إذا قحطوا بعثوا رائدهم ، فإذا وجد مكانا فيه كلأ وماء ، رجع إلى أهله فيناديهم ، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوْا : نعوذ برب هذا الوادى من أن يصيبنا آفة . يعنون الجن ، فإذا لم يفزعهم أحد نزلوا ، وربما تفزعهم الجن فيهربون !

القول الثانى : المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضا ، لكن من شر الجن مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى .

وأصحاب هذا التأويل إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف فإنه لم تقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلا .

أما قوله : **﴿ فزادوهم رهقا ﴾** : قال المفسرون :

زادوهم إثما ، وجُرأة ، وطُغيانا ، وخَطيئة ، وغَيًّا وشرا ، كل هذا من ألفاظهم . قال الواحدى : الرهق غشيان الشيء ، ومنه قوله تعالى :

﴿ **ولايرهق وجوههم قتر** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **ترهقها قترة** ﴾[2]ورجل مرهق أى يغشاه السائلون ، ويقال : رهقتنا الشمس إذا قربت .

والمعنى أن رجال الإنس إنما استعاذوا بالجن خوفا من أن يغشاهم الجن ثم إنهم زادوا فى ذلك الغشيان ، فإنهم لما تعوذوا بهم ، ولم يتعوذوا بالله استذلوهم ، واجترءوا عليهم ، فزادوهم ظلما . وهذا معنى قول عطاء : خبطوهم وخنقوهم .

وعلى هذا القول زادوا من فعل الجن .

وفى الآية قول آخر ، وهو أن زادوا من فعل الإنس ، وذلك أن الإنس لما استعاذوا بالجن ، فالجن يزدادون بسبب ذلك التعوذ طغيانا فيقولون : سُدْنا الجن والإنس .

والقول الأول هو اللائق بمساق الآية والموافق لنظمها .

* * *

الكهنة والشياطين

﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُم على مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين ؟ تنزلُ على كُلِّ أفَّاكٍ أثيم يُلْقونَ السَّمعَ وأكثَرُهم كاذبون** ﴾

[٢٢١ - ٢٢٣ : الشعراء]

يقول الإمام فخرالدين الرازى فى تفسير هذه الآيات :

(١) ٢٦ : يونس (٢) ٤١ : عبس

شبهة والإجابة عنها

قال الكفار : لم لايجوز أن يقال : إن الشياطين تنزَّل بالقرآن على محمد ﷺ ، كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة ؟ فرد الله عليهم ، وفرق بين محمد ﷺ وبين الكهنة قوله تعالى : ﴿ **هل أنبئكم على من تَنَزَّلُ الشياطين . تَنَزَّلُ على كل أفَّاك أثيم يُلْقُونَ السمعَ وأكثرهم كاذبون** ﴾

[٢٢١ - ٢٢٢ : الشعراء]

اعلم أنه تعالى أعاد الشبهة المتقدمة ، وأجاب عنها من وجهين :

الأول - قوله : تنزَّل على كل أفاك أثيم . وذلك هو الذى قررناه فيما تقدم أن الكفار يدعون إلى طاعة الشيطان ، ومحمدًا عليه السلام كان يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة عنه .

والثانى - قوله : ﴿ **يُلْقُونَ السَّمْعَ وأكثرهم كاذبون** ﴾

والمراد : أنهم كانوا يقيسون حال النبى ﷺ على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم : إن كان الأمر على ماذكرتم ، فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب ، فيجب أن يكون حال الرسول ﷺ كذلك أيضا ؛ فلما لم يظهر فى إخبار الرسول ﷺ عن المغيبات إلا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة .

ثم إن المفسرين ذكروا فى الآية وجوها :

أحدها :- أنهم الشياطين . روى أنهم كانوا قبل أن حُجِبُوا بالرجم يَسمَّعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به ، ثم يوحون به إلى أوليائهم ، وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به إليهم ؛ لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا .

وثانيها - يُلقون إلى أوليائهم السمع . أى المسموع من الملائكة .

وثالثها - يلقون السمع إلى الشياطين فيلقون وحيهم إليهم .

ورابعا - يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس . وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا إليهم .

فإن قلت : يُلقُون .. مامحله ؟

قلت : يجوز أن يكون فى محل النصب على الحال أى تنزل ملقين السمع . وفى محل الجر صفة لكل أفاك ؛ لأنه فى معنى الجمع . وأن لايكون له محل بأن يستأنف : كأن قائلا قال :

لم تنزل على الأفاكين ؟ فقيل : يفعلون كيت وكيت . فإن قلت : كيف قال : ﴿ **وأكثرهم كاذبون** ﴾ بعد ماقضى عليهم أن كل واحد منهم أفّاك ؟

قلت : الأفاكون هم الذين يكثرون الكذب ، لا أنهم الذين لاينطقون إلا بالكذب . فأراد أن هؤلاء الأفاكين قَلَّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن . وأكثرهم يفترى عليهم .

* * *

علم الغيب والإخبار عن المغيبات
وموقف الكهانة والسحر والتنجيم

﴿ عالمُ الغيبِ فلا يُظْهِرُ على غَيْبِه أَحَدًا إلاَّ مَن ٱرتَضَى مِنْ رَسُولٍ فإنَّهُ يَسْلُك مِنْ بين يَدَيْه ومِنْ خَلْفِه رَصَدًا ﴾

[٢٦ - ٢٧ : سورة الجن]

يقول الإمام فخرالدين الرازى فى تفسير هاتين الآيتين :

لفظة مِن فى قوله : ﴿ من رسول ﴾ تبيين لمن ارتضى . يعنى أنه لايطلع على الغيب إلا المرتضى الذى يكون رسولا .

قال صاحب الكشاف[1] : وفى هذا إبطال الكرامات ؛ لأن الذين تضاف الكرامات إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل . وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب .

وفيها أيضا إبطال الكهانة والسحر والتنجيم ؛ لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله فى السخط .

قال الواحدى[2] : وفى هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على مايكون من حياة أو موت أو غير ذلك ؛ فقد كفر بما فى القرآن .

واعلم أن الواحدى يجوز الكرامات ، وأن يلهم الله أولياءهُ وقوع بعض الوقائع فى المستقبل .

ونسبة الآية إلى الصورتين واحدة ؛ فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم فينبغى أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات على ما قاله صاحب الكشاف .

---

(١) اسم تفسير الزمخشرى هو : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل . ويقول « جولد تسيهر » عن الزمخشرى : « ولم يبد مفسر نشاطا واجتهادًا أكثر من الزمخشرى فى بيان الإعجاز البلاغى لنظم القرآن » .

ويعلل ابن خلدون تلك الظاهرة الأدبية التاريخية المتجلية فى عناية أهل المشرق بفن البيان العربى أكثر من المغاربة – بأن الناس يعنون بتفسير الزمخشرى ، وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو أصله « والزمخشرى هو العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى المتوفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة . من أهل خوارزم العراق .

ويقول ابن خلدون فيه : .. إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد فيأتى الحِجَاجُ على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له فى آى القرآن من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكامنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة .

وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحِجَاج عنها فلا جَرَم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه فى اللسان .[مقدمة ابن خلدون : ٣٨٤] .

(٢) هو الإمام أبوالحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى سنة ثمان وستين وأربعمائة . له البسيط والوسيط ، والوجيز ، وسمى مجموع الثلاثة : الحاوى .

وإن زعم أنها لا تدل على المنع من الإلهامات الحاصلة للأولياء فينبغى ألا يجعلها دالة على المنع من الدلائل النجومية .

فأما التحكم بدلالتها على المنع من الأحكام النجومية ، وعدم دلالتها على الإلهامات الحاصلة للأولياء فمجرد التشهى .

رأى الفخــر الــرازى :

وعندى أن الآية لا دلالة فيها على شىء مما قالوه .

والذى تدل عليه أن قوله : ﴿ على غيبه ﴾ ليس فيها صيغة عموم ، فيكفى فى العمل به حمله على غيب واحد ؛ فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول** ﴾[1] ؟ مع أنه لايظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال : ﴿ **ويوم تشقّق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا** ﴾[2] .

ولاشك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام الساعة .

وأيضا يحتمل أن يكون هذا الاستثناء (منقطعا)[3] كأنه قال : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص وهو قيام القيامة أحدًا ، ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول ﴿ **فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه** ﴾ حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن ، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جوابا لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقالته

(١) ٢٧ : الجن (٢) ٢٥ : الفرقان

(٣) الاستثناء المنقطع هو الذى لايكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه ولايقصد إخراجه من المستثنى منه .

واعلم أنه لابد من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية ألا يطلع أحدًا على شيء من المغيبات إلا الرسل ، والذى يدل عليه وجوه :

أحدها – أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن « شقا » و « سطيحا » كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد ﷺ قبل زمان ظهوره ، وكانا فى العرب مشهورين بهذا النوع من العلم ، حتى رجع إليهما كسرى فى تعرف أخبار رسولنا محمد ﷺ . فثبت أن الله تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من الغيب .

وثانيها – أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة علم التعبير وأن المعبِّر قد يخبر عن وقوع الوقائع الآتية فى المستقبل ويكون صادقا فيه .

وثالثها – أن « الكاهنة البغداديّة » التى نقلها السلطان « سنجر ابن ملك شاه » من بغداد إلى خراسان ، وسألها عن الأحوال الآتية فى المستقبل فذكرت أشياء ثم إنها وقعت على وفق كلامها .

قال مصنف الكتاب : ختم الله له بالحسنى : وأنا قد رأيت أن محققين فى علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة أخبارا على سبيل التفصيل ، وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها .

وبالغ أبو البركات فى كتاب المعتبر فى شرح حالها وقال : لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخبارًا مطابقا !!

ورابعها – أنا نشاهد ذلك فى أصحاب الإلهامات الصادقة ، وليس هذا مختصا بالأولياء بل قد يوجد فى السحرة أيضا من يكون كذلك نرى الإنسان الذى يكون سهم الغيب على درجة طالعه يكون كذلك فى كثير من أخباره ، وإن كان قد يكذب أيضا فى أكثر تلك الأخبار . ونرى الأحكام « النجومية » قد تكون مطابقة ، وموافقة للأمور ، وإن كانوا قد يكذبون فى كثير منها . وإذا كان ذلك مشاهدا محسوسا ، فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجرى

الطعن إلى القرآن وذلك باطل ، فعلمنا أن التأويل الصحيح ماذكرناه . والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿ **فإنه يسلك من بين يديه من خلفه رصدًا** ﴾[1] فالمعني أنه يسلك من بين يدى من ارتضى للرسالة ، ومن خلفه رصدًا ، أى حفظة من الملائكة يحفظونه من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم ، حتى يبلغ ما أوحى به إليه . ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونه ولا يضرونه .

وعن الضحاك : مابعث نبى إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين الذين يتشبهون بصورة الملك .

السِّحْـرُ والجـن

﴿ إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾

[٢٤ : المدثر]

يقول الإمام فخرالدين الرازى :

فى قوله (يُؤْثَر) وجهـان :

أحدهما – أنه من قولهم : أثرت الحديث آثره أثْرًا – إذا حدثت به عن قوم فى آثارهم أى بعدما ماتوا هذا هو الأصل ثم صار بمعنى الرواية عمن كان .

والثانى – يؤثر على جميع السحر ، وعلى هذا يكون هو من الإيثار .

ولقد روى أن الوليد مر برسول الله ﷺ وهو يقرأ حم السجدة فلما وصل إلى قوله ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد**

(١) ٢٧ : الجن .

وثمود ﴾(1) أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت ، وهذا يدل على أنه كان يعلم أنه مقبول الدعاء صادق اللهجة .

ولما رجع الوليد قال لهم : لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعْلَى عليه .

فقالت قريش : صبأ الوليد(2) ، ولو صبأ لتصبأن قريش كلها . فقال أبوجهل : أنا أكفيكموه(3) ، ثم دخل عليه محزونا فقال : مالك يا ابن الأخ ؟ فقال : إنك قد صبوت لتصيب من طعام محمد وأصحابه وهذه قريش تجمع لك مالا ؛ ليكون ذلك عوضا مما تقدر أن تأخذه من أصحاب محمد ، فقال : والله ما يشبعون ! فكيف أقدر أن آخذ منهم مالا ؟!

ولكنى تفكرت فى أمره كثيرا ، فلم أجد شيئا يليق به إلا أنه ساحر فأقول : استعظامه للقرآن ، واعترافه بأنه ليس من كلام الجن والإنس يدل على أنه كان فى ادعاء السحر معاندًا ، لأن السحر يتعلق بالجن وأيضا فقد كان يعلم أن أمر السحر مبنى على الكفر بالله والأفعال المنكرة وكان من الظاهر أن محمدًا لا يدعو إلا إلى الله ، فكيف يليق به السحر ؟!

إنه إنما عَبَس وبَسَر ، لأنه كان يعلم أن الذى يقوله كذب وبهتان .

* * *

وبعد .. فتعال نتابع قصة السحر والسحرة فى القرآن الكريم لنشهد ذلك اللقاء الحاسم ، وذلك اليوم المشهود .. يوم الزينة حيث كانت المواجهة بين السحر والمعجزة !!

(1) الآية رقم 13 : فصّلت (2) صَبَأ : ترك دينه ودين آبائه إلى غيره
(3) أكفيكموه : أتولى أمره وأكفيكم شره ، وأريحكم منه .

القسم الثانى

قصة السحر والسحرة على ضوء اتجاه التفسير
فى القرن السادس الهجرى

للإمـــام

فخرالدين الرازى من تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب)

أبواب الكتاب :

الباب الأول : ● سحرة فرعون ، واللقاء بين السحر والمعجزة ونهاية كيد السحرة .

الباب الثانى : ● ملك سليمان .. وهل قام على السحر كما ادعت يهود ؟ وما مهمة هارو وماروت !؟

الباب الثالث : ● النفاثات فى العقد .. وكيف النجاة من هذا الشر ؟

الباب الأول

السحر فى مصر القديمة

سحرة فرعون ، واللقاء بين السحر والمعجزة
ونهاية دولة السحر على يد
موسى - عليه السلام -

من التفسير الكبير للإمام فخرالدين الرازى

الفصل الأول : تدريب وإعداد ليوم اللقاء .

الفصل الثانى : تأهب واستعداد لمواجهة فرعون وسحرته .

الفصل الثالث : نموذج من لغة الحوار .

الفصل الرابع : تكذيب وإباء ، وموعد فلقاء .

الفصل الخامس : يوم الزينــة .

الفصل السادس : إعلان الحرب النفسية على موسى وأخيه هارون .

الفصل السابع : أسرار عجيبة من أمور الربوبية .

الفصل الثامن : عمل المفسدين وسحر الأعين لا القلوب .

الفصل الأول

تدريب وإعداد ليوم اللقاء

البرهان الباهر والمعجزة القاهرة :

﴿وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال : ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾

[١٧ - ٢١ : طه]

يقول الفخر الرازى :

اعلم أن قوله : ﴿وما تلك بيمينك ...﴾ لفظتان : فقوله : ﴿وما تلك﴾ إشارة إلى العصا ، وقوله : ﴿بيمينك﴾ إشارة إلى اليد .

وفى هذا نكت :

إحداها - أنه سبحانه لما أشار إليهما جعل كل واحدة منهما معجزا قاهرا وبرهانا باهراً ، ونقله من حد الجمادية إلى مقام الكرامة ، فإذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا ، وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ، ثم إنه تعالى

ينظر كل يوم ثلثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد ، فأى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان إلى سعادة الطاعة ،.ونور المعرفة ؟!

وثانيها – أنه بالنظر الواحد صار الجماد ثعباناً يبتلع سحر السحرة فأى عجب لو صار القلب بمدد النظر الإلهى بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء ؟!

وثالثها – كانت العصا فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانا وبرهانا ، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ، فإذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب إصبعى الرحمن من ظلمة المعصية إلى نور العبودية ؟!

ســـؤالات :

ثم ههنا سؤالات :

السؤال الأول :

– قوله : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ سؤال ، والسؤال إنما يكون لطلب العلم ، وهو على الله محال ، فما الفائدة فيه ؟

والجواب فيه فوائد :

إحداها – أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئا شريفا ، فإنه يأخذه ، ويعرضه على الحاضرين ، ويقول لهم : هذا ما هو ؟

فيقولون : هذا هو الشيء الفلانى ، ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم : خذوا منه كذا وكذا ، فالله سبحانه وتعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية ، وكضربه البحر حتى انفلق ، وفى الحجر حتى انفجر منه الماء ، عرضه أولاً على موسى ، فكأنه قال له : يا موسى ، هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع ، ثم

إنه قلبه ثعبانا عظيما ، فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث إنه أظهر هذه الآيات العْظيمة من أهون الأشياء عنده ، فهذا هو الفائدة من قوله : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى** ﴾ ؟

وثانيها – أنه – سبحانه – لما أطْلعه على تلك الأنوار المتصاعدة من الشجرة إلى السماء ، وأُسْمَعه تسبيح الملائكة ، ثم أسمعه كلام نفسه . ثم إنه مزج اللطف بالقهر فلاطفه بقوله ﴿ وأنا اخترتك ﴾ ثم قهره بإيراد التكاليف الشاقة عليه ، وإلزامه علم المبدأ والوسط والمعاد ، ثم ختم ذلك بالتهديد العظيم ، تحير موسى ودهش وكاد لايعرف اليمين من الشمال فقيل له : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى** ﴾ ؟ ليعرف عليه السلام أن يمينه هى التى فيها العصا ، أو لأنه لما تكلم معه أولا بكلام الإلٰهية وتحير موسى من الدهشة ، تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الدهشة والحيرة !!

والنكتة فيه[1] : أنه لما غلبت الدهشة على موسى فى الحضرة أراد رب العزة إزالتها فسأله عن العصا وهو لا يقع الغلط فيه .

كذلك المؤمن إذا مات ووصل إلى حضرة ذى الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام ، فيسألونه عن الأمر الذى لم يغلط فيه فى الدنيا وهو التوحيد ، فإذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه .

وثالثها – أنه تعالى لما عرف موسى كمال الإلٰهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فساله عن منافع العصا ، فذكر بعضها ، فعرفه الله تعالى أن فيها منافع أعظم مماذكر تنبيها على أن العقول قاصرة عن معرفة صفات النبى الحاضر ، فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول إلى معرفة أجل الأشياء وأعظمها ؟!

---

(١) النكتة بالضم النقطة ، ويراد بها : سر التعبير ، أو الحكمة ، وكأنما هى إجابة عن السؤال : لماذا أو لِم ؟

ورابعها – فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده أنه خشبة حتى إذا قلبها ثعبانا لا يخافها .

السؤال الثانى :

– قوله : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة . ولم يحصل ذلك لمحمد ﷺ فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد ؟

والجواب من وجهين : الأول – أنه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدًا عليه السلام فى قوله : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ إلا أن الفرق بينهما أن الذى ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الله إلى الخلق ، والذى ذكره مع محمد ﷺ كان سرا لم يستأهل له أحد من الخلق .

والثانى – إن كان موسى تكلم معه وهو تكلم مع موسى فأُمَّةُ محمد ﷺ يخاطبون الله فى كل يوم مرات على ما قال ﷺ : « المؤمن يناجى ربه » والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد ﷺ يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم فى قوله : ﴿ **سلام قولا من ربٍّ رحيم** ﴾[1] .

السؤال الثالث :

ما إعراب ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ ؟

الجواب : قال صاحب الكشاف ﴿ تلك بيمينك ﴾ كقوله ﴿ وهذا بعلى شيخا ﴾[2] فى انتصاب الحال بمعنى الإشارة . ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته بيمينك ، قال الزجاج[3] : معناه : وما التى بيمينك ؟

(١) ٥٨ : يس (٢) ٧٢ : هود

(٣) أبواسحق إبراهيم بن السرى الزجاج أستاذ الزجاجى الذى نسب إليه . أخذ النحو عن ثعلب ، ثم مال عنه إلى المبرد ولزمه ، ومات سنة ٣١١ ، وتجد ترجمته فى بغية الوعاة ١٧٩ وفى إنباه الرواه ١ : ١٥٩ وطبقات الزبيدى : ١٢١ ، وأخبار النحويين البصريين ١٠٨٠ ، وتاريخ بغداد ٦ : ٨٩ .

قال الفراء :[1] معناه ما هذه التى فى يمينك ؟

واعلم أنه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء : ثلاثة على التفصيل ، وواحد على الإجمال .

الأول – قوله : ﴿ هى عصاى ﴾ قرأ ابن أبى إسحاق ﴿ هى عصى ﴾ ومثلها : ﴿ يا بشرى ﴾[2] وقرأ الحسن : ﴿ هى عصاى ﴾ بسكون الياء . والنكت هى ثلاث :

إحداها – أنه قال : هى عصاى فذكر العصا ، ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا فى بحر معرفة الحق ؟

ولكن محمدًا ﷺ عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت إلى شيء ﴿ **مازاغ البصر وما طغى** ﴾[3] ولما قيل له : امدحنا قال : « لا أُحصى ثناء عليك » ثم نسى نفسه ونسى ثناءه فقال : « أنت كما أثنيت على نفسك »

وثانيها – لما قال : ﴿ هى عصاى ﴾ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أَلْقِها** ﴾ فلما ألقاها ﴿ **فإذا هى حية تسعى** ﴾ ؛

ليعرف أن كل ماسوى الله فالالتفات إليه شاغل ، وهو كالحية المهلكة لك ؛ ولهذا قال الخليل عليه السلام : ﴿ **فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين** ﴾[4] .

وفى الحديث : « يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذى لم يؤد زكاته ، ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع » الحديث بتمامه .

وثالثها – أنه قال : هى عصاى ، فقد تم الجواب إلا أنه عليه السلام

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد . أخذ عن الكسائى . وكان فقيها عالما فى النحو واللغة . مات سنة ٢٠٧ . ترجمته فى نزهة الألبا : ١٣٤ ، ومعجم الأدباء ٢٠ : ٩ .

(٢) ١٩ : يوسف (٣) ١٧ : النجم .

(٤) ٧٧ : الشعراء .

ذكر الوجوه الأجر ؛ لأنه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة إلى تحقيق هذا الغرض .

الثانى – قوله : ﴿ **أتوكأ عليها** ﴾ .

والتوكى ، والاتكاء واحد ، كالتوقى والاتقاء . معناه أعتمد عليها إذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة ؛ فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئا على العصا ، وقال الله تعالى لمحمد ﷺ « اتكىء على رحمتى » بقوله تعالى : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾[1] وقال : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾[2] .

[الأنفال : ٦٤]

اعتراض وجوابه :

فإن قيل : أليس قوله : ﴿ **ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾[3] يقتضى كون محمد يتوكأ على المؤمنين ؟

قُلنا : قوله : ﴿ **ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ معطوف على الكاف فى قوله : ﴿ **حسبك الله** ﴾ . والمعنى الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين .

الثالث – قوله : ﴿ **وأهش بها على غنمى** ﴾ .

أى أخبط بها فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمى فتأكله وقال أهل اللغة : هش على غنمه يَهُشُّ بضم الهاء فى المستقبل وهششت الرجل أَهَشُّ بفتح الهاء فى المستقبل . وهش الرغيف يَهِش بكسر الهاء . قال

---

(١) ٦٤ : الأنفال .

(٢) ٦٧ : المائدة .

(٣) ٦٤ : الأنفال .

ثعلب[1] : قرأ عكرمة ﴿ وأهسّ ﴾ بالسين غير المنقوطة والهش : زجر الغنم ، واعلم أن غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه فى قوله : ﴿ أتوكأ عليها ﴾ ، ثم بمصالح رعيته فى قوله : ﴿ وأهش بها على غنمى ﴾ فكذلك فى القيامة يبدأ بنفسه فيقول : « نفسى نفسى » . ومحمد ﷺ لم يشتغل فى الدنيا إلا بإصلاح أمر الأمة ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾[2] « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بأمته فيقول : « أمتى أمتى » .

والرابع – قوله : ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ أى حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها .

وحكى ابن الأعرابى[3] وقطرب[4] بكسر الراء أيضا ، والأرب بفتح الراء . والإربة بكسر الألف وسكون الراء : الحاجة ، وإنما قال : أخرى ؛ لأن المآرب فى معنى جماعة ، فكأنه قال : جماعة من الحاجات أخرى . ولو جاءت أُخَر لكان صوابا كما قال : ﴿ فعدة من أيام أُخَر ﴾[5] ثم هنا نكت :

---

(١) هو أبوالعباس أحمد بن يحيى كبير نحاة الكوفة فى عصره مات سنة ٢٩١ هـ . وترجمته مستوفاة فى طبقات الزبيدى : ١٥٥ ، ونزهة الألبا : ٢٩٣ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٠٢ – ١٤٦ وإنباه الرواة ١ : ١٣٨.

كان راوية للشعر ، مشهورًا بالحفظ وصدق اللهجة ، ثقة حجة . ولد ومات فى بغداد ، وأصيب فى آواخر أيامه بصمم فصدمته فرس فسقط فى هوة فتوفى على الأثر .

من كتبه « الفصيح – ط » و « معانى القرآن » و « ما تلحق فيه العامة » و « معانى الشعر » و « الشواذ » و « المجالس » ، و « إعراب القرآن » طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٢٩٣ .

(٢) ٣٣ : الأنفال .

(٣) ابن الأعرابى : هو أبو عبدالله محمد بن زياد ، راوية كثير السماع لم يكن فى الكوفيين أشبه منه برواية البصريين توفى سنة ٢٢١ هـ .

(٤) قطرب : أبو على محمد بن المستنير تلميذ سيبويه مات سنة ٢٠٦ هـ وسمى قطربا لأن سيبويه عندما كان يخرج بالأسحار فيراه على بابه فيقول : إنما أنت قطرب ليل والقطرب : دويبة تدب . ترجمته فى طبقات الزبيدى : ١٠٦ ، وبغية الوعاة : ١٠٤ .

(٥) البقرة : ١٨٤ .

أحدها – أنه لما سمع قول الله تعالى : ﴿ **وما تلك بيمينك** ﴾ ؟ عرف أن لله فيه أسرارًا عظيمة فذكر ما عرف ، وعبر عن البواقى التى ما عرفها إجمالا لا تفصيلا بقوله : ﴿ **ولى فيها مآرب أخرى** ﴾ .

وثانيها – أن موسى عليه السلام أحس بأنه تعالى إنما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة فقال موسى : إلهى ما هذه العصا إلا كغيرها ، لكنك لما سألت عنها عرفت أن لى فيها مآرب أخرى ، ومن جملتها أنك كلمتنى بسببها فوجدت هذا الأمر العظيم الشريف بسببها .

وثالثها – أن موسى عليه السلام أجمل[1] رجاءَ أن يسأله ربه عن تلك المآرب ، فيسمع كلام الله مرة أخرى ، ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك .

ورابعها – أنه بسبب اللطف انطلق لسانه ، ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه ، وتشوش فكره ، فأجمل مرة أخرى .

ثم قال وهب : كانت ذات شعبتين كالمِحْجَن[2] ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا حاول كسره لواه بالشعبتين ، وإذا سار وضعها على عاتقه يعلق بها أدواته من القوس ، والكنانة والثياب .

وإذا كان فى البرية ركزها ، وألقى كساء عليها فكانت ظلا ، وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر ، وتصير شعبتاها دلوا ، ويصيران شمعتين فى الليالى .

---

(١) من أساليب التعبير : الإجمال ثم التفصيل ، وفى الإجمال إيجاز ، وفى التفصيل إطناب وإطالة ، ولكل من الكلام موضعه ، والبليغ من يراعى مقتضى الحال فلكل موقف مقال يناسبه إجمالا أو تفصيلا ، وقد قالوا : البلاغة الإيجاز .

(٢) المحجن : عصا منعطفة الرأس ، واحتجن الشىء جذبه بالمحجن ، ومحجن الطائر منقاره أما وهب فهو : وهب ابن منبه يمنى ولد فى آخر خلافة عثمان وروى عن عبدالله بن عباس وعبدالله ابن عمر. روى عنه عمرو بن دينار الجمحى المكى ، وعوف بن جميلة العبدى وأقرانه . تولى قضاء صنعاء ، وكان كثير النقل من كتب الإسرائيليات وألف كتابا فى القدر ثم ندم ورجع عنه وكان يعد فيما سوى ذلك ثقة صدوقا . [ابن تيمية – مقدمة التفسير] .

وإذا ظهر عدو حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وماءه ، وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء ، فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام .

واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بإلقاء العصا فقال : ﴿ **ألقها يا موسى** ﴾

وفيه نكت :

إحداها – أنه عليه السلام لما قال : ﴿ **ولى فيها مآرب أخرى** ﴾ أراد الله تعالى أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لايفطن لها ، ولا يعرفها وأنه أعظم من سائر مآربه فقال : ﴿ **ألقها يا موسى ؛ فألقاها ، فإذا هى حيةٌ تسعى** ﴾ .

وثانيتها – كان فى رجله شىء وهو النعل ، وفى يده شىء وهو العصا ، والرجل آلة الهرب ، واليد آلة الطلب ؛ فقال أولا : ﴿ **اخلع نعليك** ﴾ إشارة إلى ترك الهرب ، ثم قال : ﴿ **ألقها يا موسى** ﴾ وهو إشارة إلى ترك الطلب ؛ كأنه سبحانه قال : إنك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك ، وطالبا لِحظِّك ، فلا تكون خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصا لى .

وثالثتها – أن موسى عليه السلام مع علو درجته ، وكمال مَنْقبته[1] لما وصل إلى الحضره ولم يكن معه إلا النعلان والعصا أمره بإلقائهما حتى أمكنه الوصول إلى الحضرة ، فأنت مع ألف وقر من المعاصى كيف يمكنك الوصول إلى جنابه ؟!

ورابعتها – أن محمدًا ﷺ كان مجردا عن الكل . ﴿ **مازاغ البصر** ﴾

(١) المنقبة : الفعل الكريم ، والمفخرة (ضد المثلبة) جمعها مناقب . ومناقب الإنسان ما عرف به من الأخلاق الجميلة ، والخصال الحميدة . المنجد .

فلا جرم وجد الكل ، لعمرك أما موسى لما بقى معه تلك العصا لا جرم أمره بإلقاء العصا .

واعلم أن الكعبى[1] تمسك به فى أن الاستطاعة قبل الفعل فقال : القدرة على إلقاء العصا ، إما أن توجد والعصا فى يده ، أو خارجة من يده فإن أتته القدرة وهى فى يده فذاك قولنا ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾[2] وإذا أتته وليست فى يده ، وإنما استطاع أن يلقى من يده ما ليس فى يده فذلك محال .

ما الحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت ؟

أما قوله : ﴿ **فألقاها فإذا هى حية تسعى** ﴾ ففيه أسئلة :

السؤال الأول : ما الحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت ؟

الجواب : فيه وجوه :

أحدها : أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه ، وذلك لأنه عليه السلام إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء . والنداء وإن كان مخالفا للعادات إلا أنه لم يكن معجزاً لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا ، والعجب أن موسى عليه السلام قال : أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه ، وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له .

---

(١) فى خراسان وما وراء النهر قامت حركة فلسفية – قوية يرجع الفضل فيها – كما يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ظهر الإسلام – إلى شخصيتين من أقوى الشخصيات وهما : أبو زيد البلخى وأبو القاسم الكعبى ، وقد كان أبو القاسم بن أحمد الكعبى من بلخ أيضا وكان معاصرا لأبى زيد ، وصديقا له ، واشتهر بتبحره فى علم الكلام وأنه رأس من رءوس المعتزلة ، له مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية مات سنة ٣١٧ هـ .

(٢) الأنفال : ٥١ .

وثانيها : أن النداء كان إكراما له عليها ، فقلَب العصا حية متزيدًا فى الكرامة ليكون توالى الخلع والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه .

وثالثها : أنه عرض عليه ليشاهده أولا فإذا شاهده عند فرعون لا يخافه .

ورابعها : أنه كان راعيا فقيرا ، ثم إنه نصب للمنصب العظيم فلعله بقى فى قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على أنى لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد منى نصرة مثلك فى إظهار الدين ؟

وخامسها : أنه لما قال : ﴿ **هى عصاىَ أتوكأ عليها** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولى فيها مآربُ أخرى** ﴾ فقيل له : ﴿ ألقها ﴾ فلما ألقاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها ، فكأنه قيل له : إنها عصاك ، وإن لك فيها مآرب أخرى ، فلم تفر منها ؟ تنبيها على سر قوله تعالى : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾[1] ، وقوله ﴿ **قل الله ثم ذرهم** ﴾[2] .

السؤال الثانى : لم قال ههنا حية وفى موضع آخر ثعبان ؟ وجان أما الحية: فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى ، والصغير والكبير .

وأما الثعبان والجان فبينهما تنافٍ ؛ لأن الثعبان : العظيم من الحيات والجان : الدقيق .

وفيه وجهان :

أحدهما : أنها كانت وقت انقلابها حية دقيقة صغيرة ، ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا ، فأريد بالجان أول حالها ، وبالثعبان مآلها .

والثانى : أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جان** ﴾[3]

---

(١) ٥٠ : الذاريات .
(٢) ٩١ : الأنعام .
(٣) ١٠ : النمل .

السؤال الثالث : كيف كانت صفة الحية ؟

الجواب : كان لها عرف كعرف الفرس ، وكان بين لحييها أربعون ذراعا ، وابتلعت كل ما مرت به منْ الصخور والأشجار حتى سمع موسى صرير الحجر فى فمها وجوفها .

لم خاف موسى عليه السلام ؟

﴿ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾

أما قوله تعالى : **﴿ قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾** ففيه سؤالات :

السؤال الأول : لما نودى موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عند الله إلى الخلق فلم خاف ؟

والجواب من وجوه :

أحدها : أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع ؛ لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط ، وأيضا فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول .

وعند الفزع الشديد قد يذهل الإنسان عنه . قال الشيخ أبو القاسم الأنصارى رحمه الله ، وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه فى النبوة ؛ لأن الساحر يعلم أن الذى أتى به تمويه ، فلا يخافه ألْبَتَّةَ .

وثانيها : قال بعضهم : خافها ، عليه السلام عرف ما لقى آدم منها .

وثالثها : أن مجرد قوله : ﴿ لا تخف ﴾ لايدل على حُصول الخوف كقوله **﴿ ولا تطع الكافرين ﴾**[1] لايدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله : **﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبرا ﴾**[2] يدل عليه ، ولكن ذلك

---

(١) ٤٨ : الأحزاب .
(٢) ١٠ : النمل .

الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد ﷺ فإنه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة[1] عن الثعبان ، وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار !!

السؤال الثانى : متى أخذها ؟ بعد انقلابها عصا أو قبل ذلك ؟

والجواب : روى أنه أدخل يده بين أسنانها فانقلبت خشبة ، والقرآن يدل عليه أيضا بقوله : ﴿ **سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ وذلك يقع فى الاستقبال ، وأيضا فهذا أقرب للكرامة ؛ لأنه كما أن انقلاب العصا حيَّة معجزة ، فكذلك إدخال يده فى فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشبا معجز آخر ، فيكون فيه توالى المعجزات فيكون أقوى فى الدلالة .

السؤال الثالث : كيف أخذه ؟أ مع الخوف أم بدونه ؟

والجواب : روى مع الخوف ، ولكنه بعيد ؛ لأن بعد توالى الدلائل يبعد ذلك .

وإذا علم موسى عليه السلام أنه تعالى عند الأخذ سيعيدها سيرتها الأولى فكيف يستمر خوفه ، وقد علم صدق هذا القول ، وقال بعضهم : لما قال ربه : ﴿ لا تخف ﴾ بلغ من ذلك ذهاب خوفه ، وطمأنينة نفسه إلى إدخال يده فى فمِها ، وأخذ بِلِحْييها[2] .

السؤال الرابع : ما معنى سيرتها الأولى ؟

والجواب : قال صاحب الكشاف : السيرة من السَّيْر كالرِّكبة من الركوب . يقال : سار فلان سيرة حسنة ، ثم اتُّسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة .

---

(١) نفر عن الشيء : خاف منه ، ولم يرغب فيه .

(٢) لِحْييها مثنى لِحىْ : ولكل حيوان وإنسان لحيان وهما الفكان .

السؤال الخامس : علام انتصب سيرتها ؟

الجواب : فيه وجهان :

أحدها : بنزع الخافض يعنى إلى سيرتها[1] .

وثانيهما : أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها كانت أولا عصا ، فصارت حيّة ، فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أى تسير سيرتها الأولى - يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ، ولك فيها المآرب التى عرفتها .

* * *

(١) تجر الكلمة إذا سبقها ما يجرها من حروف الجر أو الإضافة .. وتنصب إذا كان هناك سبب وعامل يعمل فيها النصب ؛ وأحيانا لايكون سبب النصب ملموسا ولا عامل الجر موجودا ، فيقول النحويون : إنه منصوب على نزع الخافض .. أى أن الخافض كان موجودا فنزعناه فنصبت الكلمة ، وأصبح من أسباب النصب نزع الخافض . سنعيدها (إلى) سيرتها ، فنزعنا (إلى) فأصبحت : ستعيدها سيرتها .

الفصل الثانى

تأهب واستعداد لمواجهة فرعون وسحرته

أمر كريم ، وأمنية غالية :

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ! ﴾

قال : ﴿ رب اشرح لى صدرى .. ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى .. يفقهوا قولى ﴾

يقول الفخر الرازى :

• إلهى ، لقد أنرت حياتنا بالدين ، فكلمة لا إله إلا الله نور والوضوء نور ، والصلاة نور ، والجنة نور ، فبحق أنوارك التى أعطيتنا فى الدنيا لا تحرمنا فضلك وإحسانك ليوم القيامة !!

• ثم يقول فى تفسير دعوة موسى عليه السلام قبل المواجهة واللقاء : سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر فقال :

« نور يقذف فى القلب » . فقيل : وما أمارته ؟ فقال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل النزول !

ويدل على أن شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[1]

واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ، ووصفها بالنور :

أحدها — وصف **ذاته** بالنور : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[2]

وثانيها — **الرسول** : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾[3]

وثالثها — **القرآن** : ﴿ **واتبعوا النور الذى أنزل معه** ﴾[4]

ورابعها — **الإيمان** ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾[5]

وخامسها — **عدل الله** : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾[6]

وسادسها — **ضياء القمر** : ﴿ **وجعل القمر فيهن نورا** ﴾[7]

وسابعها — **النهار** : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾[8]

وثامنها — **البينات** : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾[4]

وتاسعها : **الأنبياء** : ﴿ **نور على نور** ﴾[10]

وعاشرها — **المعرفة** : ﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾[11]

* * *

---

(١) ٢٢ : الزمر
(٢) ٣٥ : النور
(٣) ١٥ : المائدة
(٤) ١٥٧ : الأعراف
(٥) ٨ : الصف
(٦) ٦٩ : الزمر
(٧) ١٦ : نوح
(٨) ١ : الأنعام
(٩) ٤٤ : المائدة
(١٠) ٣٥ : النور
(١١) ٣٥ : النور

سر دعاء موسى عيه السلام بهذا الدعاء :

يقول الإمام فخرالدين الرازى : إذا ثبت هذا فنقول :

كأن موسى عليه السلام قال :

- **رب اشرح لى صدرى :** بمعرفة أنوار جلالك .
- **رب اشرح لى صدرى :** بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك .
- **رب اشرح لى صدرى :** باتباع وحيك ، وامتثال أمرك ونهيك .
- **رب اشرح لى صدرى :** بالاطلاع على أسرار عدلك فى قضائك وحكمك .
- **رب اشرح لى صدرى :** بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك . كما فعله إبراهيم عليه السلام – حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس إلى حضرة العزة .
- **رب اشرح لى صدرى :** من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك .
- **رب اشرح لى صدرى :** بالاطلاع على مجامع آياتك ، ومعاقد بيناتك فى أرضك وسمواتك .
- **رب اشرح لى صدرى :** فى أن أكون خلف صور الأنبياء المتقدمين ، ومتشبها بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين .
- **رب اشرح لى صدرى :** بأن تجعل سراج الإيمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح .

الفصل الثالث

نموذج من لغة الحوار بين موسى وفرعون

﴿ فقال له فرعون :

إنى لأظنك يا موسى مسحوراً

قال :

لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السمواتِ والأرض بصائر . وإنى لأظنك يا فرعونُ مثبوراً ﴾

[سورة الإسراء : ١٠١ - ١٠٢]

المسحور والمثبور

أخبر الله تعالى أن فرعون قال لموسى :

﴿ إنى لأظنك يا موسى مسحورًا ﴾

أقوال العلماء فيما يراد بهذا الوصف :

وفى لفظ المسحور وجوه : **الأول** – قال الفرَّاء : إنه بمعنى الساحر ، كالمشئوم والميمون ، وذكرنا هذا فى قوله : ﴿ **حجابا مستورًا** ﴾[1] .

الثانى – أنه مفعول من السحر . أى أن الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب .

الثالث – قال محمد بن جرير الطبرى : معناه أعطيت علم السحر . فهذه العجائب التى تأتى بها من ذلك السحر .

ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ **لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض** ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول – قال الكسائى : ﴿ علمتُ ﴾ بضم التاء . أى علمت أنَّها من علم الله ، فإن علمت وأقررت ، وإلا هلكت !

والباقون بالفتح ، وضم التاء قراءة ابن عباس ، وكان على – رضى الله عنه – يقول : « والله ما عَلِمَ عدوُّ الله ، ولكن موسى هو الذى علم »

فبلغ ذلك ابن عباس – رضى الله عنهما – احتج بقوله :

(١) ٤٥ : الإسراء

﴿ وجحدوا بها واستَيْقَنَتْها أنفسُهم ﴾[1]

على أن فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه السلام .

رأى الزجَّاج :

قال الزَّجاج : الأجود فى القراءة الفتح ؛ لأن علم فرعون بأنّها آيات نازلة من عند الله أوكدُ فى الحجة ، فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون أوكد من الاحتجاج بعلم نفْسه .

إجابة من يناصرون قراءة علي – عليه السلام :

وأجاب الناصرون لقراءة علي عليه السلام عن دليل ابن عباس فقالوا : قوله : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم** ﴾ يدل على أنهم استيقنوا شيئا ما ؛ فأما أنهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله ، فليس فى الآية مايدل عليه .

وأجابوا عن الوجه الثانى بأن فرعون قال : ﴿ **إن رسولكم الذى أُرْسِلَ إليكم لمجنون** ﴾[2] . قال موسى : ﴿ **لقد علمت** ﴾ فكأنه نفى ذلك وقال : لقد علمت صحة ما أتيت به علما صحيحا . علم العقلاء .

واعلم بأن هذه الآيات من عند الله ، ولا تشك فى ذلك بسبب سفاهتك .

البحث الثانى : التقدير ما أنزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله : والعيش بعد أولئك الأقوام .

وقوله : بصائر . أى حججا بينة كأنها بصائر العقول ، وتحقيق الكلام : أن المعجزة فعل خارق للعادة ، فعله فاعله لغرض تصديق المدعى .

---

(١) ١٤ : النمل .

(٢) ٢٧ : الشعراء .

ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة بهذين الوصفين ؛ لأنها كانت أفعالا خارقة للعادة ، وصرائح العقول تشهد بأن قلب العصا حية معجزة عظيمة ، لا يقدر عليها إلا الله .

ثم إن تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت ؛ فأصناف تلك الأفعال لا يقدر عليها أحد إلا الله . وكذا القول فى فرق البحر ، وإظلال الجبل ، فثبت أن تلك الأشياء ما أنزلها إلا رب السموات .

الصفة الثانية – أنه تعالى إنما خلقها لتدل على صدق موسى فى دعوة النبوة . وهذا هو المراد من قوله : ﴿ **ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض** ﴾ حال كونها بصائر . أى دالة على صدق موسى فى دعواه ، وهذه الدقائق لايمكن فهمها من القرآن الكريم إلا بعد إتقان علم الأصول .

وأقول : يبعد أن يصير غير علم الأصول العقلى قاهرا فى تفسير كلام الله .

ثم حكى تعالى أن موسى قال لفرعون : ﴿ **وإنى لأظنك يا فرعون مثبورًا** ﴾ واعلم أن فرعون قال لموسى : ﴿ **وإنى لأظنك يا موسى مَسْحُورًا** ﴾ فعارضه موسى وقال له : ﴿ **وإنى لأظنك يا فرعون مثبورًا** ﴾

رأى الفـراء[1] فى المراد من هذا الوصف :

قال الفرّاء : المثبور : الملعون المحبوس عن الخير ، والعرب تقولها ما ثبرك عن هذا ؟ أى ما منعك منه ، وما صرفك .

---

(١) الفرّاء : هو أبو زكريا يحيى بن زياد أخذ عن الكسائى ، وكان فقيها عالما فى النحو واللغة . مات سنة ٢٠٧ . ترجمته فى نزهة الألبا ١٣٤ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٩

وقال أبوزيد : يقال : أثبرت فلانا عن الشيء أثبره ، أى رددته عنه . وقال مجاهد وقتادة : هالكا .

وقال الزجاج : يقال : ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك . والثبور الهلاك . ومن معروف الكلام : فلان يدعو بالويل والثبور عند مصيبة تناله . وقال تعالى : ﴿ **دعوا هنالك ثبورًا ، لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدا وادعوا ثبورًا كثيرا** ﴾[1] .

واعلم أن فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورًا أجابه موسى : بأنك مثبور . يعنى هذه الآيات ظاهرة ، وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العاقل فى أنها من عند الله ، وفى أنه تعالى إنما أظهرها لأجل تصديقى ، وأنت تنكرها ، فلا يحملك على هذا الإنكار إلا الحسد والعناد والغى والجهل وحب الدنيا ، ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور .

* * *

(١) ١٣ — ١٤ : الفرقان .

الفصل الرابع

تكذيب وإباء ، وموعد فلقاء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولقد أَرَيْناهُ آياتِنَا كلَّها فَكَذَّبَ وَأَبَى

قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟
فلنأتينك بِسِحْرٍ مِثْلِه ..
فاجْعل بيننا وبينك موعداً لا نُخْلِفُه نحن ولا أنت مكانا سُوَى ﴾

[سورة طه : ٥٦ — ٥٨]

بين يدى الآيات :

اعلم أنه تعالى بين أنه أرى فرعون الآيات كلها ثم إنه لم يقبلها .

ما المراد بالآيات التى أراه الله إياها ؟

واختلفوا فى المراد بالآيات :

١ — فقال بعضهم :

أراد كل الأدلة : ما يتصل بالتوحيد ، وما يتصل بالنبوة ، أما التوحيد فما ذكر فى هذه السورة :

من قوله : ﴿ رَبُّنا الذى أَعْطَى كلَّ شيءٍ خَلْقه ثم هدى ﴾
[الآية : ٥٠]

وقوله : ﴿ الذى جَعَل لكم الأرض مَهْدًا .. ﴾
[الآية : ٥٣]

وماذكر فى سورة الشعراء :

﴿ قال فرعون : ومارَبُّ العالمين ؟ قال : ربُّ السَّموات والأرض ﴾ الآيات[1] .

وأما النبوة : فهى الآيات التسع[2] التى خص الله بها موسى عليه السلام وهى :

(العصا ، واليد ، وفلق البحر ، والحجر ، والجراد ، والقمل ، والضفادع والدم ، ونتق الجبل) .

معنى أريناه :

وعلى هذا التقرير معنى أريناه : عَرَّفناه صحتها ، وأوضحنا له وجه الدلالة فيها .

٢ — ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهى هذه المعجزات .

لماذا أضاف الآيات إليه سبحانه ؟

وإنما أضاف الآيات إلى نفسه سبحانه وتعالى مع أن المُظْهِرَ لها موسى عليه السلام ؛ لأنه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح إلى نفسه فقال :

---

(١) ٢٣ : الشعراء .

(٢) وإليها تشير الآية ١٣٣ : الأعراف . ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات .. الخ الآية ﴾

﴿ **فنفخنا فيها من روحنا** ﴾[1] مع أن النفخ كان من جبريل عليه السلام .

تساؤل حول التعبير بقوله سبحانه : ﴿ آياتِنا كُلَّها ﴾ والإجابة عنه :

فإن قيل : قوله : ﴿ كُلَّها ﴾ يفيد العموم ، والله تعالى ما أراه جميع الآيات ؛ لأن من جملة الآيات ما أظهرها على الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى – عليه السلام – والذين كانوا بعده ؟

قلنا : لفظ الكل – وإن كان للعموم – لكن قد يستعمل فى الخصوص عند القرينة ، كما يقال : دخلت السوق فاشتريت كل شيء . ..

أو يقال : إن موسى – عليه السلام – أراه آياته ، وعَدَّدَ عليه آيات غيره من الأنبياء – عليهم السلام – فكذب فرعون بالكل .

أو يقال : تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذى يلزم .

ثم إنه – سبحانه وتعالى – حكى عنه أنه : ﴿ كذَّب وأَبَى ﴾ قال القاضى : الإباء : الامتناع ، وإنه لا يوصف به إلا من يتمكن من الفعل والترك ؛ ولأن الله تعالى ذمه بأنه كذب ، وبأنه أبى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح .

واعلم أن هذا السؤال مر فى سورة البقرة فى قوله : ﴿ **إلا إبليس أبى واستكبر** ﴾ والجواب مذكور هناك[2] .

---

(١) ٩١ : الأنبياء .

(٢) ٣٤ : البقرة ، وخلاصته : أنه لو أجمع الأولون والآخرون على هذا البرهان لما تخلصوا عنه إلا بالتزام وقوع الممكن لا عن مرجح وحينئذ ينسد باب إثبات الصانع . أو بالتزام أنه يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد وهو جوابنا . المجلد الأول جزء ٢ ص ٢٥٦ .

شــبهة فرعــون :

ثم حكى الله – سبحانه وتعالى – شبهة فرعون وهي قوله : ﴿ **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى** ﴾؟

تركيب هذه الشبهة :

وتركيب هذه الشبهة عجيب ؛ وذلك لأنه ألقى فى مسامعهم مايصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله :

﴿ **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا** ﴾ ؟

وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان فى النهاية ، ولذلك جعله الله مساويا للقتل فى قوله :

﴿ **أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم** ﴾[1]

ثم لما صاروا فى نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام وهى : أن ما جئتنا به سحر لا مُعْجِز .

ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر ؛ لكون المعجز مما يتعذر معارضته ، والسحر مما يمكن معارضته قال :

﴿ **فَلَنأْتِيَنَّك بسحرٍ مثلِه** ﴾

ما المراد بالموعد الذى طالب فرعون بجعله ؟

أما قوله تعالى : ﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعدا لانُخْلِفه نحن ولا أنت** ﴾ فاعلم أن الموعد يجوز أن يكون مصدرًا ، ويجوز أن يكون اسما لمكان الوعد كقوله تعالى : ﴿ **وإن جهنم لموعدهم أجمعين** ﴾[2]

وأن يكون اسما لزمان الوعد كقوله : ﴿ **إن مَوعِدَهم الصبح** ﴾[3]

(١) ٦٦ : النساء .

(٢) أى ملتقاهم والآية رقم ٤٣ من سورة الحجر .

(٣) ٨١ : هود .

والذى فى هذه الآية بمعنى المصدر أى اجعل بيننا وبينك وعدا لا تخلفه ؛ لأن الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف ، أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك .

ومما يؤكد ذلك أن الحسن[1] قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لايطابق الزمان والمكان .

لماذا نصبت كلمة (مكاناً) ؟

وإنما نصب مكانا ؛ لأنه هو المفعول[2] الثانى للجعل ، والتقدير : اجعل مكانَ موعد لا نخلفه مكاناً سُوَى .

كلمة (سوى) كيف تنطق ؟ وما معناها ؟

أما قوله : (سوى) فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة وابن عامْر (سُوَى) بضم السين ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان ، مثل : طُوًى وطِوًى .

وقرىء أيضا منونا وغير منون .

وذكروا فى معناه وجوها :

أحدها — قال أبوعلى : مكانا تستوى مسافته على الفرْيقين وهو المراد من قول مجاهد ، قال قتادة : منصفا بيننا .

وثانيهما — قال ابن زيد : سوى أى مستويا ، لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض .

---

(١) هو أبوسعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى إمام البصرة وحَبْر زمانه ، كان عالما حجة ، عابدا فصيحا ، توفى سنة ١١٠ هـ .

(٢) هناك أفعال لاتكتفى بمعمول ومفعول واحد ، بل تتعدى الواحد إلى الاثنين وبعض الأفعال يتعدى وينصب ثلاثة مفاعيل ، وجعل ومصدرها مما ينصب مفعولين تقول : جعلت الإصلاحَ هدفًا لى . فالإصلاح مفعول أول ، وهدفا مفعول ثان .

فسُوًى على التقدير الأول : صفة المسافة .

وعلى هذا التقدير صفة المكان .

والمقصود : أنهم طلبوا موضعا مستويا لايكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجرى .

وثالثها – مكانًا يستوى حالنا فى الرضاء به .

ورابعها – قال الكلبى[1] : مكانا سوى هذا المكان الذى نحن فيه الآن .

* * *

(١) من بين التفاسير تفسير محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبى أبو النضر الكوفى المتوفى سنة ست وأربعين ومائة .

الفصل الخامس

يوم الزينة !!

﴿ قال :

موعدكم : يوم الزينة .
وأن يُحشَر الناسُ ضحى .
فتولّى فرعون :
فجمع كيدَه ثم أتى ..
قال لهم موسى :
ويلكم لا تفتروا على الله كذبا
فيُسْحِتَكم بعذاب !!
وقد خاب من افترى !!
فتنازعوا أمرَهم بينهم ..
وأسَرُّوا النجوى ﴾

[طه : ٥٩ - ٦٢]

موعد للقاء وحشد للمواجهة والتحدى

يقول الفخر الرازى :

قوله تعالى : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى !

قال لهم موسى : ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى !!

فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ﴾

اعلم أن فى هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى

يحتمل أن قوله تعالى : ﴿ **قال موعدكم** ﴾ أن يكون من قول فرعون فبين الوقت .

ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام .

قال القاضى : والأول أظهر ؛ لأنه المطالب بالاجتماع دون موسى .

وعندى : أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه :

أحدها – أنه جواب لقول فرعون ، فاجعل بيننا وبينك موعدًا .

وثانيها – أن تعيين يوم الزينة يقتضى اطلاع الكل على ما سيقع .

فتعيينه إنما يليق بالمُحِقِّ الذى يعرف أن اليدَ له ، لا المبطِل الذى يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس .

وثالثها – أن قوله : ﴿ موعدكم ﴾ خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون إلى موسى وهارون لزم : إما حمله على التعظيم ، وذلك لا يليق بحال فرعون معهما ، أو على أن أقل الجمع اثنان وهو غير جائز .

أما لو جعلناه من موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه استقام الكلام .

المسألة الثانية

يوم الزينة وكيف يعرب ؟

قرأ بعضهم : بضم الميم ، وقرأ الحسن بالنصب . قال الزجاج : إذا

رفع : فعلى خبر المبتدأ . والمعنى : وقتُ موعدكم يومُ الزينة .

ومن نصب : فعلى الظرف . معناه موعدكم يقع يومَ الزينة .

وأن يُحْشَرَ الناسُ .. ضحى ما معناه ؟

معناه : موعدكم حشرِ الناس ضحى . « فموضع[1] أن » يكونُ رفعا . ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة ، كأنه قال : موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى .

فإن قيـل :

ألستم قلتم فى تفسير قوله : ﴿ **اجعل بيننا وبينك موعدا** ﴾ أن التقدير : اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى . فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان ؟

قلنـا :

هو مطابق معنى ، وإن لم يطابق لفظا ؛ لأنهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة فى مكان معين مشهود باجتماع الناس فى ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان .

المسألة الثالثة

فى آراء المفسرين فى يوم الزينة .. أى يوم من العام هو ؟

ذكر المفسرون فى يوم الزينة وجوها :

(١) أنْ عندما تدخل المضارع فإنها تؤول مع مابعدها بمصدر . وكما نعلم هناك مصدر صريح يأتى من الفعل مباشرة - فنقول : حشر يحشر (حشرا) . وهناك مصدر مؤول من أن والمضارع .. وتكون أن وما بعدها فى تأويل مصدر له موضع إعرابى مثل « أن يحشر » فما موضع المصدر الإعرابى ؟ أهو مرفوع أم مجرور ؟ ذلك ما تناوله الإمام فى تفسيره.

أحدها – أنه يوم عيد لهم يتزينون فيه .

وثانيها – قال مقاتل : يوم النيروز .

وثالثها – قال سعيد بن جبير : يوم سوق لهم .

ورابعها :– قال ابن عباس : يوم عاشوراء

وإنما قال يحشر ، فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم ، وقرىء : و (أن يحشر الناس) بالياء والتاء ، يريد وأن تحشر الناس يا فرعون ، وأن يحشر اليوم .

ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة ، إما على العادة التى تخاطب بها الملوك . أو خاطب القوم بقوله : (موعدكم) وجعل ضمير يحشر لفرعون .

وإنما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه ، وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد فى المجمع ؛ ليكثر المحدث بذلك الأمر العجيب فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوبر[1] والمدر .

قال القاضى : إنه عين اليوم بقوله : (يوم الزينة) ثم عين من اليوم وقتا معينا بقوله : ﴿ **وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ .

ما المراد بتولى فرعون ؟

أما قوله : ﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى** ﴾ . فاعلم أن التولى قد يكون إعراضا ، وقد يكون انصرافا .

---

(١) الوبر : وهو للإبل والأرانب ونحوها كالصوف للغنم ، وأهل الوبر : أهل البدو . وأما المدر فهو الطين العلك الذى لايخالطه رمل ، والمدن والقرى لأن بنيانها غالبا من المدر ، والمقصود بأهل المدَر : الحضر ، ويقابله البدو .

والظاهر هنا أنه بمعنى الانصراف ، وهو مفارقته موسى – عليه السلام – على الموعد الذى تواعدوا للاجتماع فيه .

قوله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده

قال مقاتل : فتولى أى أعرض وثبت على إعراضه عن الحق ﴿ فجمع كيده ﴾ :

ودخل تحت قوله : ﴿ فجمع كيده ﴾ السحرة وسائر من يجتمع لذلك . ويدخل الآلات وسائر ما أوردته السحرة .

(ثم أتى) :

دخل تحته : أتى الموضع بالسحرة ، وبالقوم ، وبالآلات .

كم كان عدد السحرة ؟

قال ابن عباس : كانو اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا .

وقيل : كانوا أربعمائة .

وقيل : أكثر من ذلك .

ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر إليهم ، وكان طول القبة سبعين ذراعا .

ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شىء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال :

﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ﴾

بأن تزعموا بأن الذى جئت به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتى .

ما إعراب ويلكم ؟

قال الزجاج : يجوز فى انتصاب (ويلكم) أن يكون المعنى : ألزمهم الله ويلا إن افتروا على الله كذبا .

ويجوز على النداء كقوله ﴿ **يا ويلتا ، أألد وأنا عجوز** ﴾ ؟

﴿ **يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا** ﴾ .

﴿ **فَيُسْحِتَكُمْ بعذابٍ** ﴾

أى يعذبكم عذابا مهلكا مستأصلا . وقرأ حمزة وعاصم والكسائى برفع الياء من الإسحات[1] . والباقون بفتحها من السحت .

والإسحات لغة أهل نجد وبنى تميم . والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال : من افترى على الله كذبا حصل له أمران :

أحدهما – عذاب الاستئصال فى الدنيا ، أو العذاب الشديد فى الآخرة ، وهو المراد من قوله : ﴿ **فيسحتكم بعذاب** ﴾

والثانى – الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله : ﴿ وقد خاب من افترى ﴾

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لما قال موسى – عليه السلام – ذلك أعرضوا عن قوله وتنازعوا أمرهم بينهم .

الأقوال فى (تنازعوا) :

وفى تنازعوا قولان :

(١) عندما يكون الفعل رباعيا على وزن أَفْعَل مثل أعلم وأسحت فإن مضارعه يكون مضموم الفاء فنقول : يُعلم ويُسحت . والمصدر يكون على وزن إفعال مثل : إعلام وإسحات . أما إذا كان ثلاثيا مثل : علم وسحت فإن مضارعه يكون مفتوح الفاء مثل : يَعلم ، ويسحت ، والمصدر يكون كما سمع عن العرب : عِلم وسُحْت .

أحدهما – تفاوضوا ، وتشاوروا ليستقروا على شيء واحد .

والثانى – قال مقاتل : اختلفوا فيما بينهم .

ثم قال بعضهم : دخل فى التنازع فرعون وقومه .

ومنهم من يقول : بل هم السحرة وحدهم .

والكلام محتمل ، وليس فى الظاهر ما يدل على الترجيح .

الوجوه التى ذكرت فى قوله : ﴿ وأسروا النجوى ﴾ :

وذكروا فى قوله : ﴿ وأسروا النجوى ﴾ وجوها :

أحدها – أنهم أسروها من فرعون ، وعلى هذا التقدير فيه وجوه

الأول : قال ابن عباس – رضى الله عنهما – إن نجواهم قالوا : إن غلبنا موسى اتبعناه .

والثانى : قال قتادة(١) : إن كان ساحرا فسنغلبه ، وإن كان من السماء فله أمر .

الثالث : قال وهب(٢) : لما قال : (ويلكم) الآية . قالوا : ما هذا بقول ساحر .

القول الثانى : أنهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ، ونجواهم هو

(١) هو أبوالخطاب قتادة بن دعامة السدوسى الأكمه ، عربى الأصل ، كان يسكن البصرة ، روى عن بعض الصحابة والتابعين ، وكان واسع الاطلاع فى الشعر العربى ، بصيرا بأيام العرب عالما بأنسابهم ، متضلعا فى اللغة العربية ، وقد اكتسب شهرة فى التفسير ، قال فيه سعيد بن المسيب : « ما رأيت عراقيا أحفظ من قتادة » وقد احتج به أصحاب الكتب الستة وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة – الإسرائيليات والموضوعات لأبى شهبة .

(٢) وهب بن منبه الصنعانى عالم أهل اليمن . روى عن ابن عمر ، وابن عباس وجابر وغيرهم وكان ثقة توفى سنة أربع عشرة ومائة ، وقد روى عنه فى التفسير روايات كثيرة جدا ، مما فى كتب أهل الكتاب .

قولهم : ﴿ **إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم** ﴾ وهو قول السعدى .

الوجه الثالث : أنهم أسروا – النجوى من موسى وهارون ومن فرعون وقومه أيضا .

وكان نجواهم : أنهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصى ؟ وعلى أى وجه يجب إظهارها ، فيكون أوقع فى القلوب وأظهر للعيوب ؟

وهو قول الضحاك[١] .

* * *

(١) هو الضحاك بن مزاحم الهلالى ، مولاهم الخراسانى ، روى عن بعض الصحابة ، وأخذ عنهم العلم ، وثقه أحمد بن حنبل ، وأبو معين ، وأبو زرعة ، وكان له شهرة بالتفسير توفى سنة خمس ومائة .

الفصل السادس

إعلان الحرب النفسية على موسى وأخيه هارون .

إن هـذان لساحـران

يقول فخـرالدين الـرازى :

> .. وهذا طعن منهم فى معجزات موسى - عليه السلام - ثم مبالغة فى التنفير عنه ؛ لما أن كل طبع سليم يقتضى النفرة من السحر وكراهة رؤية الساحر !!
>
> ومن حيث إن الإنسان يعلم أن السحر لا بقاء له ، فإذا اعتقدوا فيه السحر ، قالوا :
>
> كيف نتبعه ؟!!
>
> فإنه لا بقاء له ، ولا لدينه ، ولا لمذهبه !!
>
> **إن هـذان لساحـران**

بين يدى الفصل للمحقق :

مازلت أذكر ذلك اليوم الذى كنا نتلقى فيه العلم بالمعهد الدينى الأحمدى بطنطا فى الثلاثينات .

ومازالت كلمات شيخنا ترن فى أذنى :

[إنَّ] المشددة حرف ناسخ ينصب المبتدأ ويرفع الخبر وراح يطبق على القاعدة - على طريقته - بأمثلة من القرآن الكريم تؤيد صدق ما تقرره ، وترسخ أثرها فى أذهاننا حتى إذا أنسنا إلى القاعدة ، واطمأنت نفوسنا إلى صدقها فاجأنا الشيخ بسؤال أثار حيرتنا ، وبلبل أفكارنا ، وجعل « المشايخ الصِّغار » يتهامسون ، ولا يكادون ينطقون !!

لقد عرض الشيخ قول الله تعالى :

﴿ إن هذان لساحران ﴾

ثم تساءل : ماذا كان ينبغى أن يقال بناء على هذه القاعدة ؟

وأجاب الطلبة : كنا نقول : إن هذين لساحران وعاد الشيخ يتساءل :

إن الخروج على القواعد يُعَدُّ لحنا .. فهل فى القرآن لحن ؟ وهل هناك خطأ نحوى فى القرآن ؟!

وعندما أثار غيرتنا حتى غلا الدم فى عروقنا راح يتساءل من جديد : كيف يحدث مثل هذا والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟!

لقد جاء القرآن بلسان عربى مبين وتكفل الله بحفظه .. فهل جاء القرآن بعد أن وضعت قواعد اللغة والنحو ، أم وضعت القواعد متأخرة بعد أن سرى اللحن على الألسنة ؟

وعند هذا الحد من الإثارة قال الشيخ : فكروا وابحثوا ولنا غدا لقاء !!

وكأنما كانت روح فخرالدين الرازى تطل علينا من عالمها ... تستشف حيرتنا ودهشتنا ... وكأنى بها تهتف بنا .. هيا إلى التفسير الكبير .. إلى مفاتيح الغيب ففيه إجابة شافية كافية يندر أن تجتمع فى كتاب .. فمع فخرالدين الرازى فى هذا البحث اللغوى المجتمع حول :

﴿ إن هذان لساحران ﴾

دراسة لغوية يقدمها الفخر الرازى

فى قولـه تعالى :

﴿ إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾

فيقول : وفى هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

القراءة المشهورة **﴿ إن هذان لساحران ﴾** ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوها أخرى :

أحدها – قرأ أبوعمرو وعيسى بن عمر[1] : (إن هذين لساحران) قالوا : هى قراءة عثمان وعائشة ، وابن الزبير ، وسعيد بن جبير ، والحسن – رضى الله تعالى عنهم .

وقد سئلت عائشة عن قوله : **﴿ إن هذان لساحران ﴾** وعن قوله : **﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى ﴾** فى المائدة . وعن قوله : **﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم – إلى قوله – والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾** فقالت : يا ابن أخى هذا خطأ من الكاتب !

وروى عن عثمان أنه نظر فى المصحف فقال : أرى فيه لحنا ، وستقيمه العرب بألسنتها ! .

---

(١) عيسى بن عمر ، وهو فى طبقة أبى عمرو بن العلاء فهو عيسى بن عمر الثقفى من أهل البصرة ، وليس بعيسى بن عمر الهمدانى من أهل الكوفة ، وتروى عنه قراءات وكان مقرىء الكوفة بعد حمزة توفى ١٥٦ هـ .

وعن أبى عمرو أنه قال : إنى لأستحى أن أقرأ ﴿ **إن هذان لساحران** ﴾ .

وثانيها – قرأ ابن كثير ﴿ **إنْ هذانّ لساحران** ﴾ بتخفيف إن وتشديد نون هذان .

وثالثها – قرأ حفص عن عاصم (إنْ هذان) بتخفيف النونين .

ورابعها – قرأ عبدالله بن مسعود ﴿ **أَنْ هذان ساحران** ﴾ بفتح الألف وجزم نونه وساحران بغير لام .

وخامسها – عن الأخفش[1] ﴿ **إن هذان ساحران** ﴾ خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها ، ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما .

وسادسها – روى عن أبى بن كعب : ﴿ **ما هذان إلا ساحران** ﴾ وروى عنه أيضا ﴿ **إن هذان لساحران** ﴾ وعن الخليل مثل ذلك .

وعن أبى أيضا : (إن ذان لساحران) فهذه هى القراءات الشاذة المذكورة فى هذه الآية .

رأى المحققين :

عدم جواز تصحيح هذه القراءات

واعلم أن المحققين قالوا : هذه القراءات لايجوز تصحيحها ؛ لأنها منقولة بطريق الآحاد ، والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر ؛ إذ لو جوزنا

(١) الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة أخذ النحو عن سيبويه وكان معتزليا حاذقا فى الجدل مات سنة ٢١٠ وترجمته فى بغية الوعاة .

إثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن ، لأنه لما جاز فى هذه القراءات أنها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك ، فثبت أن تجويز كون هذه القراءات من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير إلى القرآن ، وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ، ولما كان ذلك باطلا ، فكذلك ما أدى إليه .

لايجوز الطعن فى القراءة المشهورة

وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه :

أحدها – أنه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى إلى القدح فى التواتر وإلى القدح فى كل القرآن ، وأنه باطل .

وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة .

وثانيها – أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى ، وكلام الله تعالى لايجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة – رضى الله عنهما – أن فيه لحنا وغلطا .

وثالثها – قال ابن الأنبارى : إن الصحابة هم الأئمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحنا لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع ، وترغيبهم فى الاتباع . حتى قال بعضهم : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم .

فثبت أنه لابد من تصحيح القراءة المشهورة .

اختلاف النحويين على وجوه :

واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها :

(**الوجه الأول**) وهو الأقوى أن هذه لغة لبعض العرب . وقال بعضهم : هى لغة بالحارث بن كعب . والزجاج نسبها إلى كنانة ، وقطرب نسبها إلى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ، ونسبها ابن جنى إلى بعض بنى ربيعة أيضا .

وأنشد الفراء على هذه اللغة :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى　　مساغا لناباه الشجاع لصمما

وأنشد غيره :

تزود منا بين أذناه ضربة　　دعته إلى هابى التراب عقيم

قال الفراء :

وحكى بعض بنى أسد أنه قال :

هذا خط يدا أخى أعرفه .

وقال قطرب : هؤلاء يقولون : رأيت رجلان ، واشتريت ثوبان .

قال رجل من بنى ضبة جاهلى :

أعرف منها الجيد والعينانا　　ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين : على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء .

وقال آخر :

طاروا علاهن فطر علاها　　واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر :

كأن صريفَ ناباه إذا ما　　أمرهما صرير الأخطبان

قال بعضهم :

الأخطبان : ذكر الصردان ، فصيرهما واحدا ، فبقى الاستدلال بقوله : صريفَ ناباه .

قال : وأنشدنى يونس لبعض بنى الْحرث :

كأن يمينا سحبل ومصيفه   مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضا :

إن أباهـا وأبـا أباهـا   قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى :

روينا عن قطرب

هناك أنْ تبكى بشعشعان   رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء :

وذلك وإن كان قليلا أقيس ، لأن ما قبل حرف التثنية مفتوح ، فينبغى أن يكون مابعده ألفا ، ولو كان مابعده ياء ينبغى أن تقلب ألفا لانفتاح ما قبلها .

وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فرارًا إلى الألف التى هى أخف حروف المد .

هذا أقوى الوجوه فى هذه الآية .

ويمكن أن يقال أيضا : الألف فى هذا من جوهر الكلمة . والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لايجوز تغييره بسبب التثنية والجمع ؛ لأن ما بالذات لايتخلف ولايزول بالعرض ، فهذا الدليل يقتضى : إنّ .

يجوز أن يقال : (إن هذين) فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه (إنَّ هذان) .

(**الوجه الثانى**) فى الجواب أن يقال : إن ههنا بمعنى نعم . قال الشاعر :

ويَقُلْن شيبٌ قد علاك فقلت : إنَّه

أى : فقلت : نعم ، فالهاء فى إنه هاء السكت كما فى قوله تعالى : ﴿ **هلك عنى سلطانيه** ﴾ . وقال أبوذؤيب :

شاب المفارق إن من البلى   شيب القَذَالِ مع العذار الواصل

أى نعم إن من البلى فصار إن كأنه قال : نعم هذان لساحران .

اعتراض والإجابة عنه :

واعترضوا عليه فقالوا : اللام لا تدخل فى الخبر – على الاستحسان – إلا إذا كانت داخلة فى المبتدأ ، فأما إذا لم تدخل إن على المبتدأ فمحل اللام المبتدأ . إذ يقال : لزيدٌ أعلم من عمرو .

وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين :

(**الأول**): لا نسلم أن اللام لايحسن دخولها على الخبر[1] والدليل عليه قوله :

أم الحُلَيْس لعجوزٌ شَهْربة   ترضى من اللحم بعظم الرقبة

وقال آخر :

خالى لأنت ومن جريرٌ خالُه   ينل العلاء ويكرم الأخوالا

وأنشد قُطْرُب :

ألم تكن حلفت بالله العلى   أن مطاياك لمن خير المطى ؟

---

(١) يعنى فى أحسن الآراء .

وأيضا فقد أدخلت اللام فى خبر أمسى . قال ابن جنى : أنشدنا أبو على :

مَرُّوا عَجَالَى فقالوا:كيف صاحبكم فقال من سُئِلُوا: أمسى لَمجهودا

وقال قُطْرب : وسمعنا بعض العرب يقول :

أراك لمسالمى ، وإنى رأيته لشيخا ، وزيد – والله – لواثق بك .

وقال كثير :

ومازلت من ليلى لدُن أن عرفتها لَكَالْهائِم المقصىّ بكلّ بلاد

وقال آخر : ولكننى من حبها لعمير .

وقال المعترض : هذه الأشعار من الشواذ ، وإنما جاءت كذا لضرورة الشعر ، وجل كلام الله تعالى عن الضرورة .

وإنما تقرر هذه الكلام إذا بينا أن المبتدأ إذا لم يدخل عليه إن وجب إدخال اللام عليه لا على الخبر .

وتحقيقه أن اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدأ بالخبر ، واللام تدل على حالة من حالات المبتدأ وصفة من صفاته ، فوجب دخولها على المبتدأ ؛ لأن العلة الموجبة لحكم فى محل لابد وأن تكون مختصة بذلك المحل .

لا يقال : هذا مشكل بما إذا دخلت إن على المبتدأ ، فإن ههنا يجب إدخال اللام على الخبر مع أن ماذكرتموه حاصل فيه ؛ لأنا نقول : ذلك لأجل الضرورة ، وذلك لأن كلمة إن للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا : إن لزيدا قائم . فكأننا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع ، فلما تعذر إدخالها على المبتدأ لاجرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة .

وأما إذا لم يدخل حرف إن على المبتدأ كانت هذه الضرورة زائلة ، فوجب إدخال اللام على المبتدأ .

لا يقال : إذا جاز إدخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله :

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالبنى أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لايجوز إدخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الإثبات .

لأنا نقول : الفرق بين البابين : أن قولك زيد قائم . يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام . فإذا قلت : إن زيدا قائم فكلمة إن تفيد تأكيد ذلك الحكم . فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كلمة إن صار عبثا .

أما لو قلت : رأيت فلانا ، فهذا للثبوت ، فإذا أدخلت عليه حرف النفى أفاد حرف النفى معنى النفى ، ولا يفيد التأكيد لأنه مستقل بإفادة الأصل فكيف يفيد الزيادة ؟ فإذا ضممت إليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكداً للأول ، فلا يكون عبثا فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف ؛ لأن الكل اتفقوا على أنه إذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ؛ ولأن هذه العلل فى نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر ؟!

(**الوجه الثانى**): فى الجواب عن قولهم :

(اللام لايحسن دخولها على الخبر إلا إذا دخلت كلمة إن على المبتدأ كما ذكره الزجاج) فقال : إنَّ : وقعت موقع نعم ، واللام فى موقعها والتقدير : نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدأ لا على الخبر .

قال : وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى إسماعيل بن إسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ما سمعناه فى هذا .

قال ابن جنى هذا القول غير صحيح لوجوه :

الوجه الأول– أن الأصل أن المبتدأ إنما يجوز حذفه لو كان أمرا معلوما

جليا ، ولولا ذلك لكان فى حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب ، وإذا كانت معروفا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام ؛ لأن التأكيد إنما يحتاج إليه حيث لم يكن العلم به حاصلا .

الوجه الثانى – أن الحذف من باب الاختصار ، والتأكيد من باب الإطناب[1] . فالجمع بينهما غير جائز ؛ ولأن ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن فى العقول من العكس .

الوجه الثالث – امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدأ فى نحو قولك : زيد ضربت . فلا يجيزون : زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توْكيدا للهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت . أى ضربته لأن الحذف لايكون إلا بعد التحقيق والعلم به ، وإذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا .

الوجه الرابع – أن جميع النحويين حملوا قول الشاعر :

أم الحلَيْسِ لَعجوزٌ شهربة . على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ، ولو كان ماذهب إليه الزجاج جائزا لما عدل عنه النحويون ، ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار إذا وجدوا له وجها ظاهرا .

ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جِنِّى بأنه إنما حسن حذف المبتدأ ، لأن فى اللفظ ما يدل عليه ، وهو قوله : هذان أما لو حذف التأكيد فليس فى اللفظ ما يدل عليه . فلا جرم كان حذف المبتدأ أولى من حذف التوكيد .

---

(١) التطويل ، وهو عكس الاختصار والإيجاز . ويدور كلام الكتاب والأدباء حول الإيجاز ، والإطناب ، فمنهم من يوجز ، ومنهم من يُطنب ، وهناك من يجعل الألفاظ على قدر المعانى مساوية لها فيكون هناك مذهب ثالث اسمه : المساواة وللناس فيما يكتبون مذاهب ، ولقد قالوا : إن هناك مواطن يحسن فيها الإيجاز وأخرى تتطلب الإطناب .

وأما امتناعهم من تأكيد الضمير فى قولهم : زيد ضربت نفسه فذاك إنما كان إسناد الفعل إلى المظهر أول إسناده إلى المضمر . فإذا قال : زيد ضربت نفسه كان قوله : نفسه مفعولا فلا يُمكن جعله تأكيدًا للضمير ، فتأكيد المحذوف إنما امتنع ههنا لهذه العلة ، لأن تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع .

وأما قوله : النحويون حملوا قول الشاعر :

أم الحليس **لعجوز** شهربة

على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ، فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون ، فهذا اعتراض فى نهاية السقوط ، لأن ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لايقتضى كونه باطلا فما أكثر ماذهل المتقدم عنه ، وأدركه المتأخر فهذا تمام الكلام فى شرح هذا الوجه الثالث فى الجواب أن كلمة (إن) ضعيفة فى العمل ؛ لأنها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة فى العمل وإذا ضعفت جاز بقاء المبتدأ على إعرابه الأصلى وهو الرفع .

المقدمة الأولى – أنها تشبه الفعل ، وهذه المشابهة حاصلة فى اللفظ والمعنى . أما اللفظ فلأنها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الأسماء كالأفعال .

وأما المعنى فلأنها تفيد حصول معنى فى الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما أنك إذا قلت : قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى فى الاسم .

المقدمة الثانية – أنها لما أشبهت الأفعال وجب أن تشبهها فى العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران .

المقدمة الثالثة – أنها لم تنصب الاسم وترفع الخبر . فتقريره أن يقال : إنها لما صارت عاملة ، فإما أن ترفع المبتدأ والخبر معا ، أو تنصبهما معا ، أو ترفع المبتدأ وتنصب الخبر أو بالعكس .

والأول – باطل ؛ لأن المبتدأ والخبر كانا قبل دخول إن عليهما

مرفوعين ، فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له أثر ألبتة ولأنها أعطيت عمل الفعل ، والفعل لايرفع الاسمين فلا معنى للاشتراك .

والقسم الثانى – أيضا باطل لأن هذا أيضا مخالف لعمل الفعل ؛ لأن الفعل لاينصب شيئا مع خلوه عما يرفعه .

والقسم الثالث – أيضا باطل ؛ لأنه يؤدى إلى التسوية بين الأصل والفرع ، فإن الفعل يكون عمله فى الفاعل أولا بالرفع وفى المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الأصل والفرع . ولما بطلت الأقسام الثلاثة تعين (القسم الرابع) وهو أنها تنصب الاسم وترفع الخبر . وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف دخيلة فى العمل لا أصلية ، لأن تقديم المنصوب على المرفوع فى باب العمل عدول عن الأصل ، فذلك يدل على أن العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الأصالة بل بطريق عارض .

المقدمة الرابعة – لما ثبت أن تأثيرها فى نصب الاسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضا ، وذلك لأن كون الاسم مبتدأ يقتضى الرفع ، ودخول إن على المبتدأ لايزيل عنه وصف كونه مبتدأ ؛ لأنه يفيد تأكيد ما كان لازوال ماكان .

إذا ثبت هذا فنقول : وصف كونه مبتدأ يقتضى الرفع ، وحرف إن يقتضى النصب ، ولكن المقتضى الأول أولى بالاقتضاء من وجهين :

أحدهما – أن وصف كونه مبتدأ صفة أصلية للمبتدأ ، ودخول إن عليه صفة عرضية ، والأصل راجح على العارض .

والثانى – أن اقتضاء وصف المبتدأ للرفع أصلى واقتضاء حرف إن للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل ، فيكون الأول أولى ، فثبت بمجموع ما قررنا أن الرفع أولى من النصب فإن لم تحصل الأولوية فلا أقل من أصل الجواز ، ولهذا السبب إذا جئت بخبر إن ثم عطفت على الاسم اسما آخر جاز فيه الرفع والنصب معا .

الوجه الرابع – فى الجواب قال الفراء : هذا أصله : ذا . زيدت الهاء لأن ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت ألفا للتثنية فصارت : هذا ان فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج إلى حذف واحد ، ولايمكن حذف الأصل ، لأن أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص فحذف ألف التثنية لأن النون يدل عليه ، فلا جرم لم تعمل إن ؛ لأن عملها فى ألف التثنية .

وقال آخرون : الألف الباقى إما ألف الأصل أو ألف التثنية فإن كان الباقى ألف الأصل لم يجز حذفها ، لأن العامل الخارجى لا يتصرف فى ذات الكلمة .

وإن كان الباقى ألف التثنية فلاشك أنهم أنابوها مناب ألف الأصل . وعوض الأصل أصل لا محالة ، فهذا الألف أصل ، فلايجوز حذفه ، ويرجع حاصل هذا إلى الجواب الأول .

الوجه الخامس فى الجواب – حكى الزجاج عن قدماء النحويين أن الهاء هنا مضمرة والتقدير : إنه هذان لساحران .

وهذه الآية كناية عن الأمر والشأن . فهذا ما قيل فى هذا الموضع .

فأما من خفف فقرأ : إنْ هذان لساحران . فهو حسن فإن ما بعد الخفيفة رفع ، واللام بعدها فى الخبر لازمة واجبة وإن كانت فى إنَّ الثقيلة جائزة ، ليظهر الفرق بين إنَّ المؤكدة وإنْ النافية . قال الشاعر :

وإن مالك للمرتجى إن تضعضعت ... رحا الحرب أو دارت علىَّ خطوبُ

وقال آخر :

إن القوم والحى الذى أنا منهم ... لأهل مقامات وشاءٍ وجَامِلُ

الجامل جمع جمل .

ثم من العرب من يُعمل إنَّ ناقصة كما يُعملها تامة اعتبارا بكان فإنها

تعمل وإن نقصت فى قولك : لم يكن لبقاء معنى التأكيد . وإن زال الشبه اللفظى بالفعل ؛ لأن العبرة للمعنى .

وهذه اللغة تدل على أن العبرة فى باب الإعمال الشبه المعنوى بالفعل وهو إثبات التوكيد دون الشبه اللفظى ، كما أن التعويل فى باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضا .

وأما اللغة الظاهرة وهى ترك إعمال إن الخفيفة دالة على أن الشبه اللفظى فى إنَّ الثقيلة أحد جزأى العلة فى حق عملها ، وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل .

بخلاف السكون ، فإنه عامل بمعناه لكونه فعلا محضا ولا عبرة للفظه .

* * *

المسألة الثانية

فى ذكر ما أظهروه بعد ذكر ما أسروه من النجوى مما يدل فى مجموعه على التنفير من موسى – عليه السلام ومتابعة دينه

أنه – سبحانه وتعالى – لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى – عليه السلام ومتابعة دينه :

(**فأحدها**) : قولهم : ﴿ **هذان لساحران** ﴾

وهذا طعن منهم فى معجزات موسى – عليه السلام – ثم مبالغة فى التنفير عنه ؛ لما أن كل طبع سليم يقتضى النُّفْرَةَ عن السحر ؛ وكراهة رؤية الساحر .

ومن حيث إن الإنسان يعلم أن السحر لا بقاء له ؛ فإذا اعتقدوا فيه السحر ، قالوا : كيف نتبعه ؛ فإنه لا بقاء له ولا لدينه ، ولا لمذهبه ؟!

(**وثانيها**) : قوله : ﴿ **يريدان أن يُخرجاكُم من أرضكم** ﴾ وهذا فى نهاية التنفير ؛ لأن المفارقة عن المنشأ والمولد شديدة على القلوب . وهذا هو الذى حكاه الله عن فرعون فى قوله : ﴿ **أجِئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى** ﴾ ؟ وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها .

(**وثالثها**) : قوله : ﴿ **ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾

وهذا أيضا له تأثير شديد فى القلب فإن العدو إذا جاء واستولى على جميع المناصب والأشياء التى يرغب فيها ، فذلك يكون فى نهاية المشقة على النفس .

فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة فى التنفير عن موسى والترغيب فى دفعه وإبطال أمره .

وهنـا بحثـان :

البحث الأول – ما المراد بالطريقة المُثْلَىٰ ؟

قال الفَرَّاء : الطريقة الرجال الأشراف الذين هم قدوة لغيرهم .

يقال : هم طريقة قومهم . ويقال للواحد أيضا : هو طريقة قومه وجعل الزَّجاج الآية من باب حذف المضاف . أى ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى .

وعلى التقديرين : فالمراد أنهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهارون عليهما السلام ، يريدان أن يذهبا بأشراف قومكم ، وأكابركم ، وهم بنو إسرائيل ؛ لقول موسى عليه السلام : ﴿ **أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾[1] .

وإنما سمُّوا بنى إسرائيل بذلك ، لأنهم كانوا أكثر القوم يومئذ عددا وأموالا .

---

(١) طه : ٤٧ .

ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالدين . سموا دينهم بالطريقة المثلى . ﴿ **وكل حزب بما لديهم فرحون** ﴾[1] ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة .

البحث الثانى – لم سمى الأفضل بالأمثل ؟

المُثْلى مؤنثة لتأنيث الطريقة ، واختلفوا فى أنه لم سمى الأفضل بالأمثل ؟

فقال بعضهم : الأمثل : الأشبه بالحق . وقيل الأمثل : الأوضح والأظهر . ﴿ **فأَجْمِعُوا كيدَكُم ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا** ﴾

ثم إنه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم فى التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب فى إبطال أمره حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ فأَجْمعوا كيدكم ثم ائتوا صَفًّا ﴾

قراءة أبى عمرو بوصل الألف ، وقراءة الباقين بقطعها (فآجْمَعُوا – فَأَجْمِعُوا)

قرأ أبو عمرو بوصل الألف وفتح الميم من آجْمَعُوا . أى لا تدعوا شيئا من كيدهم إلا جئتم به .

دليله قوله : ﴿ فجمع كيده ﴾

وقرأ الباقون بقطع[2] الألف وكسر الميم ؛ وله وجهان :

أحدهما – قال الفرَّاء : الإجماع : الإحكام والعزيمة على الشىء يقال : أجمعت على الخروج مثل أزمعت .

---

(١) ٣٢ : الروم ، ٥٣ : المؤمنون . بعض الآيتين .

(٢) هناك همزة وصل لاتنطق عند اتصال الكلام ويكتب فوق الألف (آ) إشارة إلى أنها همزة وصل . وهناك همزة قطع ينطق بها وترسم رأس عين هكذا (ء) فكأنها قطعت من العين ؛ وفعل الأمر من الثلاثى همزته همزة وصل مثل : جمع . يجمع . آجمع . كما أن فعل الأمر من الرباعى همزته همزة قطع تقول : أجْمع . يُجْمع . أجْمِع .

والثانى – بمعنى الجمع . وقد مضى الكلام فى هذا عند قوله : **﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾**

قال الزجاج : ليكن عزمكم كلكم كاليد مجمعا عليه . لا تختلفوا ثم ائتوا صفا .

ما المــراد بالــصف ؟

ذكر أبو عبيدة والزجاج وجهين :

أحدهما – أن الصف موضع الجمع ، والمعنى : ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، والمعنى ائتوا مُصَلًّى من المصليات ، أو كان الصف علما للمصلى بعينه فأمِروا بأن يأتوه .

والثانى – أن يكون الصف مصدرًا . والمعنى . ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكى يكون أنظم لأمركم وأشد لهيبتكم .

وهذا قول عامة المفسرين

وقد أفلح اليوم من استعلى : .

وقوله : **﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾** اعتراض . يعنى : وقد فاز من غلب ، فكانوا يقرون بذلك أنفسهم فيما اجتمعوا عليه من إظهار ما يظهرونه من السحر .

حضور السحرة ذلك الموضع :

قوله تعالى : **﴿ قالوا يا موسى ، إما أن تُلْقِى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل أَلْقُوا ، فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يُخَيَّلُ إليه من سحرهم أنَّها تسعى ، فأوْجسَ فى نفسِه خيفةً مُوسَى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألْق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيدُ ساحرٍ ولا يُفْلِحُ الساحِرُ حيث أتى ﴾**

اعلم أنه لما تقدم ذكر الموعد ، وهو يوم الزينة ، وتقدم أيضا قوله : ﴿ **ثم ائتوا صفًّا** ﴾ صار ذلك مُغْنيًا عن قوله : فحضروا هذا الموضع وقالوا : ﴿ **إما أن تلقى** ﴾ للدلالة على ماتقدم عليه حسن أدب منهم وتواضع له وقولهم ﴿ **إما أن تُلْقِى وإما أن نكون أول من ألقى** ﴾ معناه : إما أن تلقى مامعك قبلنا ، وإما أن نلقى ما معنا قبلك وهذا التخيير مع تقديمه فى الذكر حسن أدب منهم وتواضع له ، فلا جَرَمَ[1] رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته .

أدب بـأدب :

ثم إن موسى عليه السلام قابل أدبهم بأدب فقال : ﴿ **بل أَلْقُوا** ﴾ .

سـؤالان :

١ - كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام : ﴿ بل ألقوا ﴾ ؟

٢ - ولم قدمهم فى الإلقاء على نفسه ؟

أما قوله : ﴿ بل ألقوا ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام ﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾ فيأمرهم بما هو سحر وكفر ؛ لأنهم إذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفرا ؟!!

والجواب من وجوه :

أحدها - لا نسلم أن نفس الإلقاء كفر ومعصية ؛ لأنهم إذا أَلْقَوْا ، وكان غرضهم أن يظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة الرسول عليه

(١) حقا .

السلام وهو موسى كان ذلك الإلقاء إيمانا ، وإنما الكفر هو القصد إلى تكذيب موسى وهو عليه السلام إنما أمر بالإلقاء لا بالقصد إلى التكذيب فزال السؤال .

وثانيها – ذلك الأمر كان مشروطا . والتقدير : « ألقوا ما أنتم مُلقون إن كنتم محقين » .

كما فى قوله تعالى : ﴿ **فأتوا بسورةٍ من مِثْله إن كنتم صادقين** ﴾[1] أى : إن كنتم قادرين .

وثالثها – أنه لما تعين ذلك طريقا إلى كشف الشبهة صار ذلك جائزا ، وهذا كالمُحِقِّ إذا علم أن فى قلب واحد شبهة ، وأنه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى مايقدر عليه لبقيت تلك الشبهة فى قلبه ، ويخرج بسببها عن الدين ؛ فإن للمحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ، ويكون غرضه من ذلك أن يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه ، فمطالبته بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا .

ورابعها – أن لايكونَ ذلك أمرًا ، بل يكون معناه : إنكم إن أردتم فعله ، فلا مانع منه حسا لكى ينكشف الحق .

وخامسها – أن موسى – عليه السلام – لاشك أنه كان كارها لذلك ، ولاشك أنه نهاهم عن ذلك بقوله :

﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيُسْحِتَكُم بعذاب** ﴾[2] .

وإذا كان الأمر كذلك استحال أن يكون قوله أمرًا لهم بذلك ؛ لأن الجمع بين كونه ناهيا وآمرا بالفعل الواحد محال !

فعلمنا أن قوله غير محمول على ظاهره ، وحينئذ يزول الإشكال .

---

(١) ٢٣ : البقرة .

(٢) ٦١ : طه .

السؤال الثانى – لم قدمهم فى الإلقاء على نفسه مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز ، فكذا تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة وجب أن لايجوز ؛ لاحتمال أنه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لإدراك الحجة بعده ، فيبقى حينئذ فى الكفر والضلال ، وليس لأحد أن يقول : إن ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم ، فهو عليه السلام قابل ذلك بأن قدمهم على نفسه ؛ لأن أمثال ذلك إنما يحسن فيمايرجع إلى حظ النفس ؛ فأمَّا مايرجع إلى الدليل والشبهة فغير جائز .

والجواب – أنه – عليه السلام – كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة إلى إظهارها مرة أخرى .

والقوم إنما جاءوا لمعارضته . فقال – عليه السلام – : لو أنى بدأت بإظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب فى إقدامهم على إظهار السحر ، وقصد إبطال المعجزة ، وذلك غير جائز .

ولكنى أفوض الأمر إليهم حتى أنهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ، ثم أنا أظهر المُعْجِزَ الذى يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببا لإزالة الشبهة .

وأما على التقدير الأول ، فإنه يكون سببا لوقوع الشبهة ، فكان ذلك أولى .

مسائل خمس فى قوله تعالى :

﴿ فإذا حبالهم وعِصِيُّهم يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ !!

المسألة الأولى – قول ابن عباسُ :

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ألقوا حبالهم وعصيهم : ميلاً من هذا الجانب ، وميلا من هذا الجانب ، فخيل إلى موسى عليه السلام أن الأرض

كلها حيات ، وأنها تسعى فخاف ، فلما قيل له : ﴿ **ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا** ﴾ ألقى موسى عصاه ، فإذا هى أعظم من حَيَّاتهم ، ثم أخذت تزداد عِظَماً حتى ملأت الوادى ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا فى الميلين[1] ، والناس ينظرون إليها لا يحسبون إلا أنه سحر ، ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحةً فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى - عليه السلام - فأخذها فإذا هى عصى كما كانت .

ونظرت السحرة ؛ فإذا هى لم تدع من حبالهم وعِصِيِّهم شيئا إلا أكلته ، فعرفت السحرة أنه ليس بسحر ، وقالوا : أين حبالنا وعصينا ؟ لو لم تكن[2] سحرا لبقيت ! ، فخروا سجدا ، وقالوا : ﴿ **آمنا برب العالمين ربِّ موسى وهٰرون** ﴾

المسألة الثانية - اختلاف الآراء فى عدد السحرة :

اختلفوا فى عدد السحرة ، قال القاسم بن سلام : كانوا سبعين ألفا مع كل واحد عصا وحبل !!

وقال السُّدِّى : كانوا بضعة وثلاثين ألفا مع كل واحد عصا وحبل !!

وقال وهْب : كانوا خمسة عشر ألفا .

وقال ابن جريج وعكرمة : كانوا تسعمائة : ثلثمائة من الفرس ، وثلثمائة من الروم ، وثلثمائة من الإسكندرية .

وقال الكلبى : كانوا اثنين وسبعين ساحرًا : اثنان منهم من القبط . وسبعون من بنى إسرائيل ؛ أكرههم فرعون على ذلك .

رأى فخرالدين فى هذا الاختلاف وذلك التفاوت :

---

(١) الميل : ١٦٠٩ من الأمتار

(٢) حبالهم وعصيهم .

واعلم أن الاختلاف والتفاوت واقع فى عدد كثير . وظاهر القرآن لايدل على شيء منه ، والأقوال إذا تعارضت تساقطت .

المسألة الثالثة – فى قول صاحب الكشاف فى (إذا) :

قال صاحب الكشاف : يقال فى إذا هذه : إذا المفاجأة .

والتحقيق فيها : إذا الكائنة بمعنى الوقت ، الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف إليها . خصت فى بعض المواضع بأن تكون ناصبا فعلا مخصوصا ، وهو فعل المفاجأة . والجملة ابتدائية لاغير ، فتقدير قوله تعالى : ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم** ﴾ ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم ، وهذا تمثيل . والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى . أ . هـ

المسألة الرابعة :

فى قراءة (عُصىّ) بالضم والكسر . وقراءة (يخيل) بالياء والتاء

قرىء عُصِيُّهم بالضم وهو الأصل . والكسر إتباع نحو : دُلىّ ودِلِىّ ، وقُسىّ وقِسِىّ

وقرىء (تُخَيِّلُ) بالتاء المنقوطة من فوق بإسناد الفعل إلى الحبال والعصى .

وقرىء بالضم بالياء المنقطة من تحت بإسناد الفعل إلى الكيد والسحر .

وقال الفراء : أى يخيل إليه سعيُها .

المسألة الخامسة :

علام يعود الضمير فى قوله : إليه ؟

الهاء فى قوله : ﴿ يخيل إليه ﴾ كناية عن موسى عليه السلام والمراد أنهم

بلغوا فى سحرهم المبلغ الذى صار يخيل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعى مايكون حيا من الحيات ، لا أنها كانت حية فى الحقيقة ، ويقال : إنهم حشوها بما إذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك[1] .

ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن أنها تسعى فأما ما روى عن وهب : أنهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى : ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس** ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ فهذا غير جائز ؛ لأن ذلك الوقت وقت إظهار المعجزة ، والأدلة ، وإزالة الشبهة ، فلو صار بحيث لايميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من إظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود .

فإذا المراد أنه شاهد شيئا لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها أنها تسعى .

ما المراد بالإيجاس فى قوله : ﴿ **فأوجس فى نفسه خيفة موسى** ﴾ ؟

أما قوله : ﴿ **فأوجس فى نفسه خيفة موسى** ﴾ . فالإيجاس استشعار الخوف ، أى : وجد فى نفسه خوفا !

كيف وقع الخوف فى قلب موسى ؟

فإن قيل : إنه لا مزيد فى إزالة الخوف على ما فعله الله تعالى فى حق موسى عليه السلام ، فإنه كلمه أولا ، وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد .

ثم إنه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كأعظم ثعبان ! ثم إنه أعطاه الاقتراحات الثمانية ، وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المهن الثمانية ، ثم قال له بعد ذلك كله : ﴿ إننى معكما أسمع وأرى ﴾ فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف فى قلبه ؟

---

(١) كالزئبق ونحوه مما يتمدد بالحرارة .

والجواب عنه من وجوه :

أحدها – أن ذلك الخوف إنما كان لما طبع الآدمى عليه من ضعف القلب . وإن كان قد علم موسى – عليه السلام – أنهم لا يصلون إليه، وأن الله ناصره ، وهذا قول الحسن .

وثانيها – أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه ، فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام ، ويشتبه ذلك عليهم ، وهذا التأويل متأكد بقوله : ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ وهذا قول مقاتل .

وثالثها – أنه خاف حيث بدءوا ، وتأخر إلقاؤه أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه ؛ فيدوموا على اعتقاد الباطل .

ورابعها – لعله – عليه السلام – كان مأمورا بأن لايفعل شيئا إلا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحى فى ذلك الوقت فيبقى فى الخجالة !

وخامسها – لعله عليه السلام خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد أقواما آخرين فيأتيه بهم ، فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم وهكذا من غير أن يظهر له مقطع ، وحينئذ لايتم الأمر ، ولا يحصل المقصود .

ثم إنه تعالى أزال الخوف بالإجمال أولا ، وبالتفصيل ثانيا .

أما الإجمال : فقوله تعالى : ﴿ **قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى** ﴾ ودلالته على أن خوفه كان لأمر يرجع إلى أن أمره لايظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله : ﴿ **إنك أنت الأعلى** ﴾ وفيه أنواع من المبالغة :

أحدها – ذكر كلمة التأكيد وهى إن .

وثانيها – تكرير الضمير .

وثالثها – لام التعريف .

ورابعها – لفظ العلو ، وهو الغلبة الظاهرة .

وأما التفصيل : فقوله : ﴿ **وألق ما فى يمينك** ﴾

وفيه سؤال وهو : أنه لم يقل : وألق عصاك ؟

والجواب : جاز أن يكون تصغيرا لها . أى لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العُوَيْد[1] الفرد الصغير الجرم الذى بيمينك فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها .

وجائز أن يكون تعظيما لها ، أى لا تحتفل بهذه الأجرام الكثيرة ، فإن فى يمينك شيئا أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء عندها فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها .

أما قوله : ﴿ تلقفْ ﴾

أى فإنك إذا ألقيتها فإنها تلقف ما صنعوا .

ما ورد من روايات فى قراءة (تلقف)

قراءة العامة بالجزم والتشديد . أى فألقها تتلقفها

وقرأ ابن عامر : تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أى ألقها متلقفة .

أو بالرفع على الاستئناف .

وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف . أى تأخذ بفيها ابتلاعا بسرعة .

واللقف والتلقف جميعا يرجعان إلى هذا المعنى .

---

(١) تصغير عود وهو العصا . وقد كان عويدًا فردا فى مقابلة ومواجهة حبال وعصى .

المراد بقوله « صنعوا » هنا :

وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا ، وزوروا ، والعرب تقول : فى الكذب : هو كلام مصنوع وموضوع .

وصحة قوله (تلقفْ) أنه إذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت ما صنعوا ، وفى قوله ﴿ **فألقى السحرة سجدا** ﴾ دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية ، وتلقفت ما صنعوه .

وفى التلقف دلالة على أن جميع ما ألقوه تلقفته ، وذلك لايكون إلا مع عظم جسدها وشدة قوتها .

وقد حكى عن السحرة أنهم عند التلقف أيقنوا بأن ماجاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه :

أحدها — ظهور حركة العصا على وجه لايكون مثله بالحيلة .

وثانيها — زيادة عظمها على وجه لايتم ذلك بالحيلة .

وثالثها — ظهور الأعضاء عليها من العين والمنخرين والفم وغيرها ولايتم ذلك بالحيلة .

ورابعها — تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لايتم بالحيلة .

وخامسها — عَوْدُها خشبة صغيرة كما كانت ، وشيء من ذلك لايتم بالحيلة .

ثم بين سبحانه وتعالى أن ما صنعوا كيد ساحر والمعنى : أن الذى معك يا موسى معجزة إلهية ، والذى معهم تمويهات باطلة ، فكيف يحصل التعارض ؟!

كيف قرىء « كيدُ ساحر » ؟

وقرىء كيد ساحر بالرفع والنصب

فمن رفع فعلى أن ما موصولة[1] .

ومن نصب فعلى أنها كافة .

وقرىء كيد سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر . أوهم لتوغلهم كأنهم السحر بعينه وبذاته ، أو بين[2] الكيد لأنه يكون سحرا وغير سحر كما يبين المائة بدرهم .

ونحوه علم فقه ، وعلم نحو .

سؤالات :

بقى سؤالات :

السؤال الأول – لم وحد الساحر ولم يجمع ؟

الجواب : لأن القصد فى هذه الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد ، فلو جمع تخيل أن المقصود هو العدد ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ أى هذا الجنس .

السؤال الثانى – لم نكر أولا ثم عرف ثانيا ؟

الجواب : كأنه قال : هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر ، وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ، ولاشك أن هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ .

---

(١) فتكون ما الموصولة اسم إن وجملة صنعوا صلتها وكيدُ خبرها مرفوعا أى : إن الذى صنعوه كيدُ ساحر .

وإذا كانت ما كافة ، فإنها تكف إن عن العمل ، ويزول اختصاصها بالجملة الاسمية فتكون (إنما) كافة ومكفوفة وصنعوا كيدَ ساحر . جملة فعلية مكونة من فعل وفاعل ومفعول به منصوب هو : كيدَ ساحرٍ ، وساحر مضاف إليه مجرور .

(٢) أى يكون تمييزا مبينا .

السؤال الثالث – قوله : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ يدل على أن الساحر لايحصل له مقصوده بالسحر خيرا كان أو شرا وذلك يقتضى نفى السحر بالكلية .

الجواب : الكلام فى السحر وحقيقته قد تقدم فلا وجه للإعادة . والله أعلم .

* * *

الفصل السابع

أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونهاية الخضوع لرب موسى وهارون !!

﴿ فألْقِيَ السحرة سُجَّدًا ..

قالوا : آمنا برب هٰرون وموسى !!

قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟!

إنه لكبيركم الذى علمكم السحر !!

فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ..

ولأصلبنكم فى جذوع النخل ..

ولَتَعْلَمُنَّ أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ ؟!!

[طه : ٧٠ – ٧١]

قال صاحب الكشاف :

ما أعجب أمرهم !!

قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود

ثم ألقوا رءوسهم – بعد ساعة – للشكر والسجود !! .

فما أعظم الفرق بين الإلقاءين !!

موقف عجيب !!

علام يدل قوله تعالى :

﴿ **فأُلْقِىَ السحرةُ سُجَّدًا** ﴾ وما التأويل فيه ؟

اعلم أن فى قوله : ﴿ فألقى السحرة سُجَّدًا ﴾ دلالة على أنه ألقى ما فى يمينه وصار حية تلقف ما صنعوا ، وظهر الأمر فخروا عند ذلك سجدا ، وذلك لأنهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا ما فعله موسى – عليه السلام – خارجا عن صناعتهم عرفوا أنه ليس من السحر ٱلْبَتَّةَ .

ويقال : قال رئيسهم : كنا نغالب الناس بالسحر ، وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا ، فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه ؟

فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى ، فلا جرم تابوا وآمنوا وأتَوْا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود .

لماذا لم يكن مرادا أنهم أُجْبِروا على السجود ؟ وما التأويل فيه ؟ أما قوله ﴿ **فأُلقى السحرةُ سُجَّدًا** ﴾ فليس المراد منه أنهم أُجبروا على السجود وإلا لما كانوا محمودين .

بل التأويل فيه ما قاله الأخفش وهو : أنهم من سرعة ماسجدوا كأنهم ألقوا .

وقال صاحب الكشاف : ما أعجبَ أمرهم ! قد ألقوا حبالهم وعِصِيَّهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين !

وروى أنهم لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها .

وعن عكرمة[1] : لما خروا سجدا أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة .

قال القاضى : هذا بعيد ؛ لأنه تعالى لو أراهم عيانا لصاروا ملجئين ، وذلك لايليق به قولهم : ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا** ﴾ .

وجوابه : لما جاز لإبراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفورا له أن يقول : ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى** ﴾[2] فلم لايجوز مثله فى حق السحرة ؟

أسرار عجيبة من أمور الربوبية

واعلم أن هذه القصة تنبه على أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الإلهى وقدره فى جملة المحدثات . وذلك لأن ظهور تلك الأدلة كان بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جليا ظاهرا ، وهو أنه حدثت أمور فلابد لها من مؤثر ، والعلم بذلك ضرورى ، وذلك المؤثر إما الخلق وإما غيرهم .

والأول بديهى البطلان ؛ لأن كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أنه لايقدر على إيجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ، ثم بصغرها مرة أخرى كما كانت ، وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل أفادت القطع بأنه لابد من مدبر لهذا العالم فماذا يقول ؟

ألا ترى أن أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا فى نهاية البعد ، لأنا بينا أن كل واحد منها بحيث لايمكن ارتياب العاقل فيه ، وإذا فقد عرفوا صحتها ، لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لأنفسهم ، وأحبوا تحصيل الجهل والشقاوة لأنفسهم ما أرى أن عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط ، فلم يبق إلا أن يقال :

(١) مولى ابن عباس أحد الأئمة الأعلام . (٢) ٨٢ : الشعراء .

العقل والدليل لايكفى بل لابد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ، ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى أنه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب ، وذلك يدل على أن الكل بقضائه وقدره ؛ فإنه لا اعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها وتصرفاتها ، ومن طرح التعصب عن قلبه ، ونظر إلى أحوال نفسه فى مجارى أفكاره وأنظاره ازداد وثوقا بما ذكرناه .

﴿ قالوا آمنا برب هٰرون وموسى ﴾

أما قوله : ﴿ قالوا آمنا برب هٰرون وموسى ﴾ فاعلم أن التعليمية[1] احتجوا بهذه الآية ، وقالوا :

إنهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قِبَلِ هارون وموسى ، فدل ذلك على أن معرفة الله لاتستفاد إلا من الإمام . وهذا القول ضعيف .

لم اختاروا ﴿ آمنا برب هٰرون وموسى ﴾ ولم يقولوا : « آمنا برب العالمين » ؟ بل فى قولهم : ﴿ آمنا برب هٰرون وموسى ﴾ فائدتان سوى ماذكروه :

الفائدة الأولى – وهى أن فرعون ادعى الربوبية فى قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[2] والإلٰهية فى قوله : **﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾**[3] فلو أنهم قالوا : آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول : إنهم آمنوا بى لا بغيرى ، فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة .

والدليل عليه : أنهم قدَّموا ذكر هارون على موسى ، لأن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه فى قوله :

(١) من يقولون إن معرفة الله تستفاد بالتعليم ، وتُعَلَّم .
(٢) ٢٤ : النازعات .
(٣) ٣٨ : القصص .

﴿ ألم نُربِّك فينا وليدا ﴾ ؟![1]

فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون لاجَرَم[2] قدموا ذكر هارون على موسى قطعا لهذا الخيال .

الفائدة الثانية – وهى أنهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لاجرم قالوا : ﴿ **برب هٰرون وموسى** ﴾ لأجل ذلك .

خوف فرعون من اقتداء سائر الناس بهم فى الإيمان

ثم إن فرعون لما شاهد منهم السجود والإقرار خاف أن يصير ذلك سببا لاقتداء سائر الناس بهم فى الإيمان بالله تعالى وبرسوله ففى الحال ألقى شبهة أخرى فى النبى فقال :

﴿ آمنتم له قبل أن آذنَ لكم ﴾ ؟[3]

وتقريره : أن الاعتماد على الخاطر الأول غير جائز بل لابد من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر ، فلما لم تفعلوا شيئا من ذلك بل فى الحال ﴿ **آمنتم له** ﴾ دل ذلك على أن إيمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر .

وثانيها – قوله : ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ يعنى أنكم تلامذته فى السحر ، فاصطلحتم[4] على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لأمره ، وتفخيما لشأنه .

---

(١) ١٨ : الشعراء .
(٢) لا جرم : حقا .
(٣) ٧١ : طه .
(٤) اتفقتم وتواطأتم .

ثم بعد إيراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الإيمان وتوفيرا لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك فقال :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وأرجُلكُم من خلاف ﴾[1]

قرىء لأقطعن وأصلبن بالتخفيف المراد بالقطع من خلاف :

والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ؛ لأن كل واحد من العضوين خلاف الآخر ؛ فإن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال .

إعراب ﴿ من خلاف ﴾

وقوله : ﴿ من خلاف ﴾ فى محل النصب على الحال . أى : ﴿ لأقطعنها ﴾ مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف ،

﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾

ما ســـر التعبير ؟

ثم قال : ﴿ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشىء المَوْعِيّ[2] فى وعائه ؛ فلذلك قال فى جذوع النخل .

والذى يقال فى المشهور : إن فى بمعنى على فضعيف .

ماذا أراد بقوله : ﴿ أينا ﴾ ؟

ثم قال : ﴿ ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾ أراد بقوله : ﴿ أينا ﴾ نفسه لعنه الله ؛ لأن قوله : ﴿ أينا ﴾ يشعر بأنه أراد نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله : ﴿ آمنتم له ﴾ .

---

(١) ١٢٤ : الأعراف .

(٢) الموضوع والمحفوظ .

وفيه تصالف[1] باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به ؛ لأن موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب فى شىء .

اعتراض وجوابه :

فإن قيل : إن فرعون مع قرب عهد مشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التى شرحتموها وذكرتم أنها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الأمرُ إلى أن استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم إلى هذا الحد ويستهزىء بموسى عليه السلام فى قوله : ﴿ أيُّنا أشد عذابا وأبقى ﴾ ؟!

قلنا : لم لايجوز أن يقال : إنه كان فى أشد الخوف فى قلبه إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه ، وترويجا لأمره . ومن استقرى[2] أحوال أهل العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الأشياء .

ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة أن عذاب الله أشد من عذاب البشر ، ثم إنه أنكر ذلك ، وأيضا فقد كان عالما بكذبه فى قوله : ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ لأنه علم أن موسى عليه السلام ما خالطهم ألبتَّةَ ، وما لقيهم ، وكان يعرف من سحرته أن أستاذ كل واحد من هو ؟ وكيف حصل ذلك العلم ؟ ثم إنه مع ذلك كان يقول هذه الأشياء .

فثبت أن سبيله فى كل ذلك ماذكرناه .

---

(١) تكبر وادعاء وغرور وافتخار بالباطل .

(٢) تتبع واستقصى ودرس . والاستقراء تتبع الموجودات بالتأمل والبحث والموازنة ومعرفة خواصها للحكم عليها .

وقال ابن عباس – رضى الله عنهما :

« كانوا فى أول النهار سحرة ، وفى آخره شهداء »

قوله تعالى : **﴿ لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾**

جواب السحرة عن تهديد فرعون لهم :

اعلم أن الله لما حكى تهديد فرعون لأولئك حكى جوابهم عن ذلك مما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة فى أصول الدين فقالوا : **﴿ لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات ﴾** وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم فقالوا : ﴿ لن نُؤْثِرك ﴾ جوابا لما قاله .

وبينوا العلة وهى : أن الذى جاءهم بينات وأدلة ، والذى يذكره فرعون مَحْضُ الدنيا ، ومنافع الدنيا ومضارها لاتعارض منافع الآخرة ومضارها .

قوله : ﴿ والذى فطرنا ﴾

أما قوله والذى فطرنا ففيه وجهان :

الأول – أن التقدير ، لن نؤثرك يا فرعون على ماجاءنا من البينات ، وعلى الذى فطرنا ، وعلى عبادته .

الوجه الثانى – يجوز أن يكون خفضا على القسم[1] .

ما سر قولهم فاقض ما أنت قاض ؟

واعلم أنهم لما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا : ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾

لا على معنى أنهم أمروه بذلك ، لكن أظهروا أن ذلك الوعيد لايزيلهم ألْبَتَّةَ عن إيمانهم وعما عرفوه من الحق علما وعملا .

ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا :

﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾

قراءة أخرى ووجهها :

وقرىء ﴿ تُقْضَى هذه الحياةِ الدنيا ﴾ ووجهها أن الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرفية فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة : صِيمَ[2] .

والمعنى : أن قضاءك وحكمك إنما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية . وإنما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية . والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى المتوصل به إلى السعادة الباقية .

السحر أقرب خطاياهم عهدا :

ثم قالوا : ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾

---

(١) والذى فطرنا . هل الواو للعطف . أو للقسم ؟ الوجه الأول يترتب على كونها عاطفة . والوجه الثانى يقوم على اعتبارها للقسم ، والاسم الموصول (الذى) فى محل جر خفضا على القسم .

(٢) بالبناء للمجهول فجرى الظرف مجرى المفعول ، وناب عن الفاعل .

ولما كان أقرب خطاياهم عهدا ما أظهروه من السحر قالوا : ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ وذكروا فى ذلك الإكراه وجوها :

قول ابن عباس :

أحدها — أن الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر ، فإذا شاخ بعثوا إليه أحداثا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه ، فقالوا هذا القول لأجل ذلك أى كنا فى التعلم أولا والتعليم ثانيا مكرهين قاله ابن عباس[1] .

وثانيها — أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين : اثنان من القبط ، والباقى من بنى إسرائيل فقالوا لفرعون :

أرنا موسى نائما ، فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ما هذا بساحر ! ، الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه .

وثالثها — قال الحسن : إن السحرة حُشِروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام ، فأحضروا بالحشر ، وكانوا مكرهين فى الحضور ، وربما كانوا مكرهين أيضا فى إظهار السحر .

ورابعها — قال عمرو بن عبيد : دعوة السلطان إكراه . وهذا ضعيف ؛ لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراها . ثم قالوا : ﴿ والله خير ﴾ ثواباً لمن أطاعه . ﴿ وأبقى ﴾ عقابا لمن عصاه .

وهذا جواب لقوله : ﴿ **ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى** ﴾ ؟

---

(١) هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عم النبى ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهو ترجمان القرآن دعا له النبى ﷺ فقال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » .

قال الحسن :[1]

سبحان الله ! القوم كفار ، وهم أشد الكافرين كفرا ، ثبت فى قلوبهم الإيمان فى طرفة عين ، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا : ﴿ **اقض ما أنت قاض** ﴾ فى ذات الله تعالى !!

والله إن أحدكم ليصحب القرآن ستين عاما ، ثم إنه يبيع دينه بثمن حقير !!

أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة :

ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة فقالوا فى المجرمين :

﴿ إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾

وفيـه مسـائل :

المسألة الأولى :

الهاء فى قوله (إنه) ضمير الشأن[2] . يعنى أن الأمر والشأن كذا وكذا .

المسـألة الثانيـة : مسـألة الوعيـد

استدلت المعتزلة بهذه الآية فى القطع على وعيد أصحاب الكبائر . قالوا : صاحب الكبيرة مجرم ، وكل مجرم فإن له جهنم لقوله : ﴿ **إنه من يأت**

---

(١) الحسن البصرى : تابعى . كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمانه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك مات عام ١١٠ هجرية .

(٢) فنحن نفسر هذا الضمير ونقول إنه : أى الحال والشأن كذا .

ربه مجرما ﴾[1] . وكلمة مَنْ فى معرض الشرط تفيد العموم ؛ بدليل أنه يجوز استثناء كل واحد منها . والاستثناء يُخرج من الكلام ما لولاه لدخل .

اعتراض على هذا الكلام :

واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام فقال :

لا نسلم أن صاحب الكبيرة مجرم ، والدليل عليه : أنه تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن ، فإنه قال فى هذه الآية : **﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات ﴾** ، وقال : **﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾**[2] . وأيضا فإنه قال : **﴿ فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى ﴾**[3] والمؤمن صاحب الكبيرة وإن عذب بالنار لايكون بهذا الوصف . وفى الخبر الصحيح : « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » .

الرد على هذه الاعتراضات :

واعلم أن هذه الاعتراضات ضعيفة .

أما قوله : إن الله تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فهذا مسلم ، لكن هذا إنما ينفع لو ثبت أن صاحب الكبيرة مؤمن ، ومذهب المعتزلة أنه : ليس بمؤمن ؛ فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه ، وذلك ساقط .

وقوله ثانيا : إنه لايليق بصاحب الكبيرة أن يقال فى حقه : ﴿ إن له

---

(١) ٧٤ : طه .

(٢) ٢٩ : المطففين .

(٣) ٧٤ : طه .

جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ . قلنا : لا نسلم ؛ فإن عذاب جهنم فى غاية الشدة .

قال تعالى : ﴿ **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته** ﴾[1]
وأما الحديث فيقال : « القرآن متواتر ؛ فلا يعارضه خبر الواحد »

تخصيص القرآن بخبر الواحد :

ويمكن أن يقال : ثبت فى أصول الفقه أنه : يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد .

وللخصم أن يجيب فيقول : ذلك يفيد الظن ، فيجوز الرجوع إليه فى العمليات ، وهذه المسألة ليست من العمليات . بل من الاعتقادات ؛ فلا يجوز المصير إليها هنا .

اعتراض من آخر والرد عليه :

فإن اعترض إنسان آخر وقال :

أجمعنا على : أن هذه الآية مشروطة بنفى التوبة ..

.. وبأن لايكون عقابه محبطا بثواب طاعته ..

والقدر المشترك بين الصورتين هو أن لا يوجد مايحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب .

وعندنا المجرم الذى لايوجد فى حقه العفو لابد وأن يدخل جهنم واعلم أن هذا الاعتراض أيضا ضعيف . أما شرط نفى التوبة فلا حاجة إليه ؛ لأنه قال : ﴿ **من يأت ربه مجرما** ﴾ أى حال كونه مجرما والتائب لا يصدق عليه أنه أتى ربه حال كونه مجرما .

(١) ١٩٢ : آل عمران .

صـاحب الصـغيرة :

وأما صاحب الصغيرة ، فلأنه لا يسمى مجرما ؛ لأن المجرم اسم للذم ، فلا يجوز إطلاقه على صاحب الصغيرة .

الاعتراض الصحيح :

بل الاعتراض الصحيح أن نقول : عموم هذا الوعيد معارَض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله : ﴿ **ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلى** ﴾[1] .

وكلامنا فيمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر .

فإن قيل : عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة .

قلنا : لِمَ لا يجوز أن يقال : ثواب الإيمان يدفع عقاب المعصية ؟ فإن قالوا : لو كان كذلك لوجب أن لا يجوز لعنه وإقامة الحد عليه .

قلنا : أما اللعن فغير جائز عندنا .

وأما إقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما فى حق التائب ، وقد تكون على سبيل التنكيل .

قالت المعتزلة : فى قوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله** ﴾ فالله تعالى نص على أنه يجب عليه إقامة الحد على سبيل التنكيل ، وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقا للمدح والتعظيم . وإذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا ، فدلنا ذلك على أن عقاب

---

(١) ٧٥ : طه .

الكبيرة أولى بإزالة ثواب الطاعة المستقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة .

هذا منتهى كلامهم فى مسألة الوعيد .

رأى المؤلف :

قلنا : حاصل الكلام يرجع إلى النص الدال على إقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضا للنصوص الدالة على كونه مستحقا للثواب فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس ؛ وذلك لأن المؤمن ينقسم إلى السارق وغير السارق ، فالسارق ينقسم إلى المؤمن وإلى غير المؤمن ، فلم يكن لأحدهما مزية على الآخر فى العموم والخصوص فإذا تعارضا تساقطا .

ثم نقول : لا نسلم أن كلمة (مَنْ) فى إفادة العموم قطعية بل ظنية ، ومسألتنا قطعية ، فلا يجوز التعويل على ماذكرته وتمام الكلام فيه مذكور فى كتاب « المحصول فى الأصول » .

المسألة الثالثة : تمسك المجسمة بالآية

.. تمسكت المجسِّمَة[1] بقوله : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرما** ﴾ فقالوا : الجسم إنما يأتى ربه لو كان الرب فى المكان .

وجوابه : أن الله تعالى جعل إتيانهم موعد الوعد إتيانا إلى الله مجازا

(١) عدها من الفرق كلّ من : الشهرستانى فى الملل والنحل ، وابن الجوزى فى تلبيس إبليس ، والبغدادى فى الفرق بين الفرق ، والأشعرى يذكر أن أصحاب مقاتل بن سليمان ذهبوا إلى أن الله جسم وأن له جُمَّة ، وأنه على صورة الإنسان (وهو مع هذا لا يشبه غيره ولا يشبهه غيره) . ويذكر الباحثون عن مقاتل أنه غلا فى الإثبات حتى شبه ، بينما غلاجهم فى التنزيه حتى عطل . وينقلون عن أبى حنيفة قوله فيهما : (إن هذا معطل ، وذاك مشبه وإن لهما رأيين خبيثين) الإمام الكوثرى .

كقول إبراهيم عليه السلام ﴿ **إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** ﴾[1]

المسألة الرابعة : معنى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾

الجسم الحى لابد وأن يبقى إما حيا أو يصير ميتا فخلوه عن الوصفين محال ، فمعناه فى الآية : أنه يكون فى جهنم بأسوأ حال لا يموت موتة مريحة ، ولا يحيا حياة ممتعة .

المراد بقوله : ﴿ قد عمل الصالحات ﴾

ثم ذكر حال المؤمنين فقال : ﴿ **ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى** ﴾[2] . واعلم أن قوله ﴿ **قد عمل الصالحات** ﴾ يقتضى أن يكون آتيا بكل الصالحات . وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن . فينبغى أن يحمل ذلك على عمل الواجبات .

ثم ذكر أن من أتى بالإيمان والأعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ، ثم فسرها فقال : ﴿ **جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار** ﴾[3]

تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر :

وفى الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر ؛ لأنه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالإيمان والأعمال الصالحة ، فسائر الدرجات التى هى غير عالية لابد وأن تكون لغيرهم . وما هم إلا العُصَاةُ من أهل الإيمان .

---

(١) ٩٩ : الصافات
(٢) ٧٥ : طه .
(٣) ٧٦ : طه .

﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾

أما قوله : ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾[1] فقال ابن عباس يريد : من قال : لا إله إلا الله .

وأقول : لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هى جزاء من تزكى أى تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب أن الدرجات التى لاتكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى ، فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى ، وعفا الله بفضله ورحمته عنهم .

واعلم أنه ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ، ولكن ثبت ذلك فى الأخبار .

* * *

شبهتان وجوابهما

[من كتاب عصمة الأنبياء للرازى]

الأولى : كيف جاز لموسى أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر ، والأمر بمثله لايجوز ؟

(الجواب) : ذلك الأمر كان مشروطا ، والتقدير : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ **فأتوا بسورة من مثله** ﴾ أى إن كنتم قادرين .

وأيضا – لما تعين ذلك طريقا إلى كشف الشبهة ، صار جائزا .

---

(١) طه : ٧٦ .

الثانية : ﴿ **فأوجس فى نفسه خيفة موسى** ﴾

أوليس خوفه يقتضى الشك فيما أتى به ؟

(الجواب) : لعله خاف ؛ لأنه رأى من قوة التلبيس ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على بعض الناس ، فآمنه الله منه ، وبين أن حجته تتضح للقوم بقوله تعالى : ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾

* * *

الفصل الثامن

عمل المفسدين وسحر الأعين لا القلوب

تأملات مع الفخر الرازى

- الله سبحانه يحق الحق ويبطل الباطل
- السحر محض تمويه

عمل المفسدين

﴿ فلما ألقوا ، قال موسى :

ماجئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عملَ المفسدين . ويُحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾

يقول الفخر الرازى : واعلم أن القوم أرادوا أن يعارضوا معجزة موسى – عليه السلام – بأنواع من السحر ؛ ليظهر عند الناس أن ما أتى به موسى من

باب السحر ، فجمع فرعون السحرة ، ﴿ **فقال ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ فإن قيل : كيف أمرهم بالكفر والسحر ، والأمر بالكفر كفر ؟!

قلنا : إنه عليه السلام أمرهم بإلقاء الحبال والعصى ليظهر للخلق ، أن ما أتوا به عمل فاسد ، وسعى باطل ، لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر ، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى : ماجئتم به هو السحر الباطل .

والغرض منه أن القوم قالوا لموسى : إن ما جئت به سحر ، فذكر موسى عليه السلام أن ما ذكرتموه باطل ، بل الحق أن الذى جئتم به هو السحر والتمويه الذى يظهر بطلانه .

ثم أخبرهم بأن الله تعالى يُحقُّ الحق ، ويبطل الباطل ، وقد أخبر الله تعالى فى سائر السور أنه كيف أبطل ذلك السحر ، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصى .

ثم قال تعالى : ﴿ **إن الله سيبطله** ﴾ أى سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ﴿ **إن الله لايُصلح عمل المفسدين** ﴾ أى لا يقويه ولا يكمله .

ثم قال : ﴿ **ويحق الله الحق** ﴾ ومعنى إحقاق الحق إظهاره وتقويته . وقوله : ﴿ بكلماته ﴾ أى بوعده موسى . وقيل بما سبق من قضائه وقدره . وفى كلمات الله أبحاث غامضة عالية .

واعلم أنه تعالى بين فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة ، وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر ، ثم إنه تعالى بين أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم إلا ذرية من قومه .

وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد ﷺ لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر ، فبين أن له فى هذا الباب بسائر الأنبياء

أسوة ؛ لأن الذى ظهر من موسى عليه السلام كان فى الإعجاز فى مرأى العين أعظم ، ومع ذلك فما آمن به منهم إلا ذرية .

* * *

سحروا أعين الناس !!

قوله تعالى :

﴿ فلما ألقَوْا سحروا أعين الناس ﴾

واحتج به القائلون بأن السحر محض التمويه .

قال القاضى : لو كان السحر حقا ، لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم ؛ فثبت ان المراد أنهم تخيلوا أحوالا عجيبة مع أن الأمر فى الحقيقة ما كان على وفق ماتخيلوه .

قال الواحدى : بل المراد ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ أى قلبوها عن صحة إدراكها بسبب تلك التمويهات .

وقيل : إنهم أتوا بالحبال والعصى ، ولطخوا تلك الحبال بالزئبق ، وجعلوا الزئبق فى دواخل تلك العصى ، فلما أثر تسخين الشمس منها تحركت والتوى بعضها على بعض ، وكانت كثيرة جدا ، فالناس تخيلوا أنها تتحرك وتلتوى باختيارها وقدرتها .

واسترهبوهم !!

وأما قوله : ﴿ واسترهبوهم ﴾ فالمعنى أن العوام خافوا من حركات تلك الحبال والعصى .

قال المبرد : ﴿ استرهبوهم ﴾ أرهبوهم والسين زائدة

الباب الثانى

ملك سليمان وهل قام على السحر كما ادعت يهود ؟

- اتباع اليهود ما تتلو الشياطين على ملك سليمان .
- السحر فى بابل وبلاد ما بين النهرين .
- تعليم السحر مهمة الشياطين الكافرين .
- هاروت وماروت ومهمتهما .
- التفريق بين الزوجين صورة من صور السحر .
- لا ضرر إلا بإذن الله .
- من اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق .
- لو كانوا يعلمون !!

الســـحر فى بابـــل

قال تعالى :

﴿ واتَّبَعوا ما تَتْلوا الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ .. وما كفَر
سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفروا يُعَلِّمون الناسَ السِّحْر ..
وماأُنْزِلَ على المَلَكين ببابل هاروتَ وماروتَ ..
وما يُعَلِّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر ..
فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ..
وما هم بضارِّين به من أحدٍ إلا بإذن الله ..
ويتعلمون مايَضُرُّهم ولا ينفعهم ...
ولقد عَلِمُوا لَمَنِ اشتراهُ ماله فى الآخرةِ من خلاق ...
ولَبِئْس ما شرَوْا به أنفُسَهم ...
لو كانوا يعلمون .. ﴾

صدق الله العظيم

[البقرة : ١٠٢]

بين يدى الآية للمحقق

أرأيت كيف قامت الديانة اليهودية على إبطال السحر الذى جاء به سحرة فرعون ؟

وكيف حملهم موسى عليه السلام على الإيمان بالله مقررا أن الساحر لا يفلح حيث أتى !!

ومن عجب أن يشتغل اليهود بالسحر ، ويقبلوا عليه ، ويدعوا الناس إليه ، ويتبعوا ما كان يتلوه عليهم المتمردون من شياطين الإنس والجن من كتب السحر على عهد سليمان ، وقد كانت الشياطين فى عهد سليمان تلقن كهان اليهود قواعد السحر ، وتدعى كذبا أن ملك سليمان وسلطانه على الإنس والجن والطير والريح لم يقم إلا على تلك القواعد التى دونت فى كتب لديهم توارثها الخلف عن السلف حتى وصلت إلى اليهود بالمدينة !

ولا عجب ؛ فطبعهم وشيمتهم تلويث الأنبياء ، كما نلمسه فى أسفار العهد القديم ، ولاشك أن السحر يؤدى إلى الكفر ، فاتهام الشياطين واليهود سليمان بمزاولته أمر يشينه ؛ ولهذا نفاه الله عنه بقوله :

﴿ وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾

وفى مجال تعداد جرائم اليهود حدثنا القرآن الكريم عن موقفهم من النبى محمد ﷺ عندما بعث ، ورفضهم كتاب الله الذى جاء به مع أنه مصدق للكتاب الذى معهم وهو التوراة ، لكونه مطابقا للأوصاف الموجودة فيه !!

وعلى طريق الرفض والعناد نبذوا كتاب الله ، وفضلوا عليه الاستمرار فى مزاولة السحر الذى يحرمه ، وينادى بكفر من يمارسه !!

إنهم اليهود .. أينما كانوا .. وحيثما حلوا !!

فتعال إلى الفخر الرازى لننعم بتفسيره لهذه الآيات .

* * *

الفصل الأول

من قبائح اليهود التى عددها القرآن الكريم

(اشتغالهم بالسحر ، وإقبالهم عليه ، ودعاؤهم الناس إليه)

المسائل التى تناولها الفخر الرازى فى تفسير الآيات :

- المسألة الأولى قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ﴾
- المسألة الثانية فى تفسير : ﴿ تتلوا ﴾
- المسألة الثالثة فى المراد بالشياطين .
- المسألة الرابعة فى قوله : ﴿ على ملك سليمان ﴾ .
- المسألة الخامسة فى المراد بملك سليمان .
- المسألة السادسة فى السبب فى إضافة السحر إلى سليمان .
- المسألة السابعة فى قوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كفروا .. ﴾ .
- المسألة الثامنة فى قراءة نافع وابن كثير .

نبذ اليهود كتاب الله واتباعهم ما تتلو الشياطين

تفسير قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ الآية .

يقول الإمام فخرالدين الرازى :

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائح أفعالهم ، وهو اشتغالهم بالسحر ، وإقبالهم عليه ، ودعاؤهم الناسَ إليه .

أما قوله تعالى : ﴿ **واتَّبَعوا ماتَتْلُوا الشياطينُ على مُلْكِ سليمانَ** ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى : قوله تعالى : ﴿ واتَّبَعُوا ﴾ .

حكاية عمن تقدمْ ذكرهم ، وهم اليهود . ثم فيه أقوال :

(أحدها) أنهم : اليهود الذين كانوا فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام .

(وثانيها) أنهم الذين تقدموا من اليهود .

(وثالثها) أنهم الذين كانوا فى زمن سليمانَ عليه السلام من السحرة ؛ لأن أكثر اليهود ينكرون نُبُوَّةَ سليمان عليه السلام ، ويعدونه من جملة الملوك فى الدنيا ، فالذين كانوا منهم فى زمانه ، لا يمتنع أن يعتقدوا فيه أنه إنما وُجِدَ ذلك المُلْكُ العظيم بسبب السحر .

(ورابعها) أنه يتناول الكل ، وهذا أوْلَى ؛ لأنه ليس صَرْف اللفظ[1]

---

(١) اللفظ الذى معنا هو : « واتَّبعوا » ، وقد فهم منه أن المتبعين هم اليهود .. ولكن أى اليهود ؟ هل نصرف اللفظ إلى فئة خاصة منهم ؟ هل نريد به جميع اليهود قديما وحديثا ؟ الأولى أن يتناول اللفظ الكل ، لأنه ليس هناك دليل على تخصيصه .

إلى البعض أولى من صرفه إلى غيره ؛ إذا لا دليل على التخصيص .

قال السُّدِّى[1] : لما جاءهم محمد عليه الصلاة والسلام عارضُوه بالتوراة ، فخاصَموه فاتفقت التوراةُ والقرآن ، فنبذوا التوراة ، وأخذوا بكتاب آصف[2] ، وسحر هاروت وماروت ، فلم يوافق القرآن ؛ فهذا قوله تعالى :

﴿ ولما جاءهم رسولٌ من عِندِ الله مُصَدِّقٌ لما معهم نبذَ فريقٌ من الذين أوتُوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظُهورهم ﴾ ثم أخبر عنهم بأنهم اتبعوا كتبَ السحر .

ما المراد بقوله : تتلوا ؟

المسألة الثانية فى تفسير : ﴿ تَتْلُوا ﴾

ذكروا فى تفسير ﴿تتلوا﴾ وجوها :

أحدها : أن المراد منه التلاوة والإخبار .

ثانيها : قال أبومسلم ﴿ تتلوا ﴾ أى تكذب على ملك سليمان . إذا كذب ، وتلاعنه ، إذا صدق . وإذا أُبْهِمَ[3] جاز الأمران والأقرب : هو الأول ؛ لأن التلاوة ، حقيقة فى الخبر ، إلا أن المخبر يقال فى خبره إذا كان كذبا : إنه تلا فلان ، وإنه تلا على فلان ليميز بينه وبين الصدق الذى لا يقال فيه ، روى على فلان ، بل يقال : روى عن فلان ، وأخبر عن فلان ، وتلا عن فلان ، وذلك لا يليقُ إلا بالإخبار والتلاوة .

---

(١) أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبى كريمة السدى الكوفى نسبة إلى سدة مسجد الكوفة كان يبيع فيها المقانع ، وقد رمى بالتشيع ، روىَ عن أنس وابن عباس .

(٢) آصف كما يقول القاموس المحيط – كهاجَر – كاتب سليمان صلوات الله عليه ، دعا بالاسم الأعظم ، فرأى سليمان العرش مستقرا عنده .

(٣) أى لم يوضّح : عليه ، أم عنه ؛ فقيل : تتلو فقط ؛ فإنها عند ذلك تحتمل المعنيين .

ولا يمتنع أن يكون الذين كانوا يُخْبرون به عن سليمان مما يُتْلى ويُقْرأ ، فيجتمع فيه كُلّ الأوصاف .

المسألة الثالثة : ما المراد بالشياطين ؟ والاختلاف فيهم .

اختلفوا فى الشياطين :

- فقيل المراد : شياطين الجن ، وهو قول الأكثرين .
- وقيل : شياطين الإنس ، وهو قول المتكلمين من المعتزلة[1] .
- وقيل : هم شياطين الإنس والجن معا .

وجهة نظر كُلّ منهم :

أما الذين حملوه على شياطين الجن ، قالوا : إن الشياطين كانوا يسترقون السمع ، ثم يضمون إلى ماسمعوا أكاذيب ، يلفقونها ، ويلقونها إلى الكهنة ، وقد دونوها فى كتب يقرءونها ، ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك فى زمن سليمان – عليه السلام – حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب .

وكانوا يقولون : هذا عِلْمُ سليمان ، وما تم له مُلكه إلا بهذا العلم ،

---

(١) المتكلمون : الذين يمارسون علم الكلام ، وهو العلم الذى يبحث فيما ينبغى أن يعرفه المسلم عن الله وأسمائه وصفاته ، ويبحث فى الأنبياء والرسل والرسالات ، والقضاء والقدر . ويسمى أيضا : علم التوحيد ، وقد قام هذا العلم بهدف دفاعى جليل وخطير هو المحافظة على عقائد المسلمين أما المعتزلة : فكانوا فرسان الجناح العقلى فى الإسلام لكن غلوهم أفسد كل شىء ، ويقوم الاعتزال على خمسة أصول ، وكانت بداية الاعتزال ،.يوم أن أفتى واصل بن عطاء بأن مرتكب الكبيرة يقع فى منزلة بين المنزلتين (يقصد الإيمان والكفر) ، فلم يرض شيخه الحسن البصرى عن هذه الفتوى .؛ لذا ترك واصل مجلسه واعتزل عنه بعيدا فى المسجد ، فقال الحسن البصرى : اعتزلنا واصل !!

وبه يُسَخِّرُ الجن والإنس والريح التى تجرى بأمره[1] .

وأما الذين حملوه[2] على شياطين الإنس قالوا : روى فى الخبر[3] « أن سليمان عليه السلام قد دفن كثيرا من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه ، حرصا على أنه : إن هلك الظاهر منها يبقى ذلك المدفون ، فلما مضت على ذلك ، توصل قوم من المنافقين إلى أن كتبوا فى خلال ذلك أشياء من السحر تناسب تلك الأشياء من بعض الوجوه ، ثم بعد موته ، واطلاع الناس على تلك الكتب ، أوهموا الناس أنه من عمل سليمان ، وأنه ما وصل إلى ما وصل إليه ، إلا بسبب هذه الأشياء ، فهذا معنى « **ماتتلوا الشياطين** » .

حجتهم على ذلك :

واحتج القائلون بهذا الوجه على فساد القول الأول : بأن شياطين الجن لو قدروا على تغيير كتب الأنبياء وشرائعهم بحيث يبقى ذلك التحريف محققا فيما بين الناس ، لا رتفع الوثوق عن جميع الشرائع ، وذلك يُفضى إلى الطعن فى كل الأديان .

تســاؤل :

فإن قيل : إذا جوزتم ذلك على شياطين الإنس ، فلم لايجوز مثله على شياطين الجن ؟

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة صٓ الآية : ٣٦ ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب ﴾ .

(٢) حملوه : فسروه ، وأولوه .

(٣) الخبر : يسمى حديث رسول الله ﷺ خبرًا ، فالخبر مرادف ومساو للحديث على الصحيح وقيل : الحديث والخبر متباينان ؛ فالحديث ماجاء عن النبى ﷺ والخبر ماجاء عن غيره ، وقيل : الخبر أعم من الحديث ، فيشمل ماجاء عن النبى وغيره ، أما الحديث فخاص بما ورد عن النبى .

قلنا : الفرق ، أن الذى يفعله الإنسان لابد وأن يظهر من بعض الوجوه .

أما لو جوزنا هذا الافتعال من الجن ، وهو أن نزيد فى كتب سليمان بخط مثل خط سليمان ، فإنه لا يظهر ذلك ، ويبقى مخفيا فيفضى إلى الطعن فى جميع الأديان .

المسألة الرابعة : فى قوله : ﴿ على مُلك سليمان ﴾

(معنى على ملك سليمان)

أما قوله : **﴿ على مُلك سليمان ﴾** .

فقيل : فى مُلْكِ سُلَيْمان . عن ابن جُرَيْج .

وقيل : على عهد مُلك سليمان .

والأقرب : واتبعوا ماتتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان ، لأنهم كانوا يقرءون من كتب السحر ، ويقولون : إن سليمان إنما وجد ذلك الملك بسبب هذا العلم ، فكانت تلاوتهم لتلك الكتب كالافتراء على ملك سليمان .

المسألة الخامسة : فى المراد بمُلْك سُلَيمان

اختلفوا فى المراد بملك سليمان :

فقال القاضى : إن ملك سليمان هو النبوة ، أو يدخل فيه النبوة وتحت النبوة الكتاب المنزل عليه والشريعة .

وإذا صح ذلك ثم أخرج القوم صحيفة فيها ضروبُ السحر ، وقد دفنوها تحت سرير ملكه ، ثم أخرجوها بعد موته ، وأوهموا أنها من جهته صار ذلك منهم تقولا عن ملكه فى الحقيقة .

والأصح عندى : أن يقال : إن القوم لما ادعوا أن سليمان إنما وجد تلك المملكة بسبب ذلك العلم كان ذلك الادعاء كالافتراء على ملك سليمان .

المسألة السادسة : فى السبب فى إضافة السحر إلى سليمان .

السبب فى أنهم أضافوا السحر إلى سليمان – عليه السلام – وجوه :

أحدها – أنهم أضافوا السحر إلى سليمان تفخيما لشأنه ، وتعظيما لأمره ، وترغيبا للقوم فى قبول ذلك منهم .

وثانيها – أن اليهود ما كانوا يقرون بنبوة سليمان ، بل كانوا يقولون : إنما وجد ذلك الملك بسبب السحر .

وثالثها – أن الله تعالى لما سخر الجن لسليمان ، فكان يخالطهم ، ويستفيد منهم أسرارًا عجيبة ، فغلب على الظنون أنه عليه الصلاة والسلام استفاد السحر منهم .

تفسير قوله تعالى : ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ :

أما قوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ فهذا تنزيه له عليه السلام عن الكفر ، وذلك يدل على أن القوم نسبوه إلى الكفر والسحر . قيل فيه أشياء :

أحدها – ما روى عن بعض أحبار اليهود ، أنهم قالوا : ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبيا ، وما كان إلا ساحراً فأنزل الله هذه الآية .

وثانيها – أن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فنزهه الله تعالى منه .

وثالثها – أن قوما زعموا أن قوام ملكه كان بالسحر فبرأه الله تعالى منه ؛ لأن كونه نبيا ينافى كونه ساحرا ، ثم بين أن الذى برأه منه لاصق بغيره فقال :

﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾

يشير بذلك إلى ما تقدم ذكره ممن اتخذ السحر كالحرفة لنفسه ، وينسبه إلى سليمان .

ثم بين تعالى ما به كفروا ، فقد كان يجوز أن يتوهم أنهم ما كفروا أولا بالسحر فقال تعالى :

﴿ يعلمون الناس السحر ﴾

* * *

المسألة السابعة : فى تعليم السحر

قوله تعالى :

﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾

أما قوله تعالى : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ فظاهر الآية يقتضى أنهم إنما كفروا لأجل أنهم كانوا يعلمون الناس السحر لأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلِّيَّة[1] ، وتعليم ما لا يكون كفرًا لا يوجب الكفر ، فصارت الآية دالة على أن تعليم السحر كفر . وعلى أن السحر أيضا كفر .

ولمن منع ذلك أن يقول :

لا نسلم أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعِلِّيَّة ، بل المعنى : أنهم كفروا ، وهم مع ذلك يعلمون الناس السحر .

فإن قيل : هذا مشكل ؛ لأن الله تعالى أخبر فى آخر الآية أن الملَكين يعلمان الناس السحر ، فلو كان تعليم السحر كفرا لزم تكفير الملكين ، وأنه

(١) أى أن الحكم عليهم بالكفر عِلَّته : تعليمهم الناسَ السحر .

غير جائز لما ثبت أن الملائكة بأسرهم معصومون .

وأيضا ؛ فلأنكم قد دللتم على أنه ليس كل ما يسمى سحرا فهو كفر .

قلنا : اللفظ المشترك لايكون عاما فى جميع مسمياته . فنحن نحمل هذا السحر الذى هو كفر على النوع الأول من الأشياء المسماة بالسحر وهو اعتقاد إلهيّةِ الكواكب والاستعانة بها فى إظهار المعجزات وخوارق العادات ، فهذا السحر كفر .

والشياطين إنما كفروا لإتيانهم بهذا السحر لا بسائر الأقسام . وأما الملكان : فلا نسلم أنهما علما هذا النوع من السحر بل لعلهما يعلمان سائر الأنواع على ما قال تعالى : ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ .

وأيضا فبتقدير أن يقال : إنهما علّما هذا النوع ، لكن تعليم هذا النوع إنما يكون كفرا إذا قصد المعلم أن يعتقد المتعلم حقيقته ، وكونه صوابا ،

فأما أن يعلمه ليحترز عنه ، فهذا التعليم لا يكون كفرا ، وتعليم الملائكة كان لأجل أن يصير المكلف محترزًا عنه على ما قال تعالى حكاية عنهما : ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ .

وأما الشياطين الذين علموا الناس السحر فكان مقصودهم اعتقاد حقّية هذه الأشياء فظهر الفرق .

* * *

المسألة الثامنة : قراءة نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو
(« لكنَّ » و « الشياطينَ »)

قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو بتشديد « لكنَّ » و « الشياطينَ » بالنصب على أنه اسم لكنَّ .

والباقون : « لَكِنْ » بالتخفيف و « الشياطينُ » بالرفع والمعنى واحد . وكذلك فى الأنفال :

﴿ ولكن الله رمى ﴾[1] . و ﴿ لكن الله قتلهم ﴾[2] .

والاختيـــــار :

. أنه إذا كان بالواو ، كان التشديد أحسن[3] .

وإذا كان بغير الواو فالتخفيف أحسن[4] .

والوجه : فيه أن « لكنْ » بالتخفيف يكون عطفا ؛ فلا يحتاج إلى الواو ولاتصال الكلام ، والمشدَّدة لا تكون عطفا ؛ لأنها تعمل عمل إن .

---

(١) ١٧ : الأنفال .
(٢) ١٧ : الأنفال .
(٣) وَلَكِنَّ الله
(٤) لَكِنِ الله .

الفصل الثانى

هاروت وماروت

المسائل التى تناولها الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى :

﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾

- المسألة الأولى فى « ما » فى قوله : ﴿ وما أنزل ﴾ .
- المسألة الثانية فى قراءة الحسن « مَلِكَيْن » بكسر اللام .
- المسألة الثالثة القول بأنهما كانا من الملائكة ، والاختلاف فى سبب نزولهما .
- المسألة الرابعة ما قيل من وقوع هذه الحادثة فى زمن إدريس عليه السلام .
- المسألة الخامسة : ما قيل فى إعراب هاروت وماروت .

يقول الإمام فخرالدين : أما قوله تعالى : ﴿ وما أُنْزِل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى

« ما » فى قوله : ﴿ وما أنزل » . فيه وجهان :

الوجه الأول : أنه بمعنى الذى . ثم اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال :

الأول – أنه عطف على (السحر) . أى يعلمون الناسَ السحر ، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أيضا .

وثانيهما – أنه عطف على قوله : ﴿ ما تتلوا الشياطين ﴾ . أى واتبعوا ما تتلو الشياطين افتراء على ملك سليمان ، وما أنزل على الملكين ؛ لأن السحر منه ما هو كفر ، وهو الذى تلته الشياطين . ومنه ماتأثيره فى التفريق بين المرء وزوجه ، وهو الذى أنزل على الملكين .

فكأنه تعالى أخبر عن اليهود : أنهم اتبعوا كلا الأمرين ، ولم يقتصروا على أحدهما .

وثالثهما – أن موضعه جر عطفا على (ملك سليمان) وتقديره : ما « تتلوا الشياطين » افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين . وهو اختيار أبى مسلم رحمه الله . وأنكر فى الملكين أن يكون السحر نازلا عليهما ، واحتج عليه بوجوه :

الأول – أن السحر لو كان نازلا عليهما لكان مُنَزِّلُه هو الله تعالى ، وذلك غير جائز ؛ لأن السحر كفر وعبث ، ولا يليق بالله إنزال ذلك ؛

الثانى – أن قوله : ﴿ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحر ﴾ يدل على أن تعليم السحر كفر ؛ فلو ثبت فى الملائكة أنهم يعلمون السحر ؛ لزمهم الكفر ! وذلك باطل .

الثالث – كما لايجوز فى الأنبياء أن يُبْعَثُوا لتعليم السحر ؛ فكذلك فى الملائكة بطريق الأولى .

الرابع – أن السحر لاينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة[1] ، وكيف يضاف إلى الله تعالى ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المُمَوَّه[2] . وقد جرت عادة الله تعالى بإبطاله ، كما قال فى قصة موسى – عليه السلام – ﴿ **ماجئتم به السحرُ إنَّ الله سيُبْطِلُه** ﴾[3] .

ثم إنه رحمه الله سلك فى تفسير الآية نهجا آخر يخالف قول أكثر المفسرين فقال : كما أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرأ عنه ، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر ، مع أن المنزل عليهما كان مبرأ عن السحر ، وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير ، وإنما كانا يعلمان الناس ذلك مع قولهما : ﴿ **إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ توكيدًا لبعثهم على القبول والتمسك . وكانت طائفة تتمسك ، وأخرى تخالف وتعدل عن ذلك ، ويتعلمون منهما أى من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، فهذا تقرير مذهب أبى مُسْلِم .

الوجه الثانى : أن يكون « ما » بمعنى الجَحْد[4] . ويكون معطوفا على قوله تعالى : ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ كأنه قال :

لم يكفر سليمان ، ولم ينزل على الملكين سحر ؛ لأن السحرة كانت تضيف السحر إلى سليمان وتزعم أنه مما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . فرد الله عليهم فى القولين .

---

(١) جمع مارد ، وهو من بلغ الغاية التى يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف . القاموس المحيط .

(٢) المُمَوَّه : يقال : موَّه الخبر عليه : أخبره بخلاف ما سأله ، وموه الشيء : طلاه بفضة أو ذهب وتحته نحاس أو حديد ، وكذلك الباطل المموَّه .

(٣) ٨١ : يونس .

(٤) الجَحدُ والجحود : المبالغة فى الإنكار والنفى ، وفرق كبير بين أن تكون ما موصولة بمعنى الذى أنزل على الملكين . وبين أن تكون للنفى أى : ولم ينزل على الملكين سحر .

وقوله تعالى : ﴿ **وما يعلمان من أحد** ﴾ جَحْدٌ[1] أيضا .

أى لا يعلمان أحدًا بل ينهيان عنه أشد النهى . أما قوله تعالى : ﴿ **حتى يقولا : إنما نحن فتنة** ﴾ أى ابتلاء وامتحان فلا تكفر .

وهو كقولك « ما أمرت فلانا بكذا حتى قلت له : إن فعلت كذا نالك كذا » . أى ما أمرت به بل حذرته عنه .

الرأى عند الرازى والرد على من خالفه :

واعلم أن هذه الأقوال وإن كانت حسنة إلا أن القول الأول أحسن منها ؛ وذلك لأن عطف قوله : ﴿ وما أنزل ﴾ على مايليه[2] أولى من عطفه على مابعد[3] عنه إلا لدليل منفصل .

أما قوله : « لو نزل السحر عليهما لكان منزل ذلك السحر هو الله تعالى » قلنا : تعريف صفة الشىء قد يكون لأجل الترغيب فى إدخاله فى الوجود وقد يكون لأجل أن يقع الاحتراز عنه كما قال الشاعر : عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه .

قوله ثانيا – إن تعليم السحر كفر . لقوله تعالى : ﴿ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ .

فالجواب أنا بينا أنه واقعة حال ، فيكفى فى صدقها صورة واحدة ، وهى ما إذا اشتغل بتعليم سحر من يقول بإلهية الكواكب ويكون قصده من ذلك التعليم إثبات أن ذلك المذهب حق .

---

(١) نفى .

(٢) أى ماقبله مباشرة وقرب منه ، وهو « السحر » كما فى القول الأول .

(٣) أى « ماتتلوا الشياطين » كما فى القول الثانى ، أو « ملك سليمان » كما فى القول الثالث .

قوله ثالثا – إنه لايجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليم السحر فكذا الملائكة .

قلنا : لا نسلم أنه لايجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليمه بحيث يكون الغرض من ذلك التعليم التنبيه على إبْطاله .

قوله رابعا – إنما يضاف السحر إلى الكفرة والمردَةِ فكيف يضاف إلى الله تعالى ماينهى عنه ؟

قلنا : فرق بين العمل وبين التعليم ؛ فلم لايجوز أن يكون العمل منهيًّا عنه ؟

وأما تعليمه لغرض التنبيه على فساده ؛ فإنه يكون مأمورًا به .

المسألة الثانية

(وجه قراءة « مَلِكين » بكسر اللام)

قرأ الحسن : « مَلِكَيْن » بكسر اللام وهو مروى أيضا عن الضحاك وابن عباس .

ثم اختلفوا : فقال الحسن : كانا عِلْجينْ أقلفين[1] ببابل يعلمان الناس السحر .

وقيل : كانا رجلين صالحين من الملوك .

والقراءة المشهورة بفتح اللام ، وهما كانا ملكين نزلا من السماء وهاروت ، وماروت : اسمان لهما .

وقيل : هما جبريل ، وميكائيل عليهما السلام .

---

(١) العِلج : بوزن العجل الواحد من كفار العجم والجمع عُلُوج. والأقلف الذى لم يختن .

وقيل : غيرهما .

حجة الذين كسروا اللام :

أما الذين كسروا اللام فقد احتجوا بوجوه :

أحدها – أنه لايليق بالملائكة تعليم السحر .

وثانيها – كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله : ﴿ **ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون** ﴾ ؟[1]

وثالثها – لو أنزل الملكين ، لكان إما أن يجعلهما فى صورة الرجلين أو لايجعلهما كذلك .

فإن جعلهما فى صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلا وتلبيسا على الناس وهو غير جائز .

ولو جاز ذلك فلم لايجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم لايكون فى الحقيقة إنسانا ، بل مَلَكًا من الملائكة ؟

وإن لم يجعلهما فى صورة الرجلين قدح ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا** ﴾[2] .

الرد على ما احتجوا به :

والجواب عن الأول : أنا سنبين وجه الحكمة فى إنزال الملائكة لتعليم السحر .

وعن الثانى : أن هذه الآية عامة ، وقراءة الملَكين (بفتح اللام) متواترة[3] وخاصة ، والخاص مقدم على العام .

---

(١) ٨ : الأنعام .　　　(٢) ٩ : الأنعام .

(٣) المتواتر : مارواه جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب .

وعن الثالث : أن الله تعالى أنزلهما فى صورة رجلين ، وكان الواجب على المكلفين فى زمان الأنبياء أن لايقطعوا على من صورته صورة الإنسان بكونه إنسانا ، كما أنه فى زمان الرسول عليه الصلاة والسلام كان الواجب على من شاهد دحية الكلبى[1] أن لايقطع بكونه من البشر بل الواجب التوقف فيه .

المسألة الثالثة :

القول بأنهما من الملائكة

(إذا قلنا : بأنهما كانا من الملائكة ، فقد اختلفوا فى سبب نزولهما)

فروى[2] عن ابن عباس : أن الملائكة لما أعلمهم الله بآدم وقالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يُفْسِدُ فيها ويسفك الدماء** ﴾ ؟ فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾[3] .

ثم إنه تعالى وكل عليهم جمعا من الملائكة ، وهم « الكرام الكاتبون » فكانوا يعرجون بأعمالهم الخبيثة ، فعجبت الملائكة منهم ، ومن تبقية الله تعالى لهم مع ما ظهر منهم من القبائح .

ثم أضافوا إليهم عمل السحر ، فازداد تعجب الملائكة ، فأراد الله تعالى أن يبتلى الملائكة فقال لهم : اختاروا ملَكَيْن من أعظم الملائكة علما وزهدا وديانة ، لأنزلهما إلى الأرض ، فأختبرهما ، فاختاروا هاروت وماروت ، وركب فيهما شهوة الإنس وأنزلهما ، ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا والشرب ، فنزلا فذهبت إليهما امرأة من أحسن النساء وهى « الزهرة »

(١) كان من أجمل الناس هيئة بالفتح والكسر . وكان جبريل أحيانا ما يظهر فى صورته .

(٢) هذه الرواية كما قال الفخر – فيما بعد – مردودة غير مقبولة ؛ لأنه ليس فى كتاب الله مايدل على ذلك بل فيه مايبطلها . وهى أشبه بالأساطير اليونانية والإسرائيليات .

(٣) ٣٠ : البقرة .

فراوداها عن نفسها فأبت أن تطيعهما إلا بعد أن يعبدا الصنم ، وإلا بعد أن يشربا الخمر ، فامتنعا أولا ، ثم غلبت الشهوة عليهما ؛ فأطاعاها فى كل ذلك ، فعند إقدامهما على الشرب وعبادة الصنم دخل سائل عليهم فقالت :

« إن أظهر هذا السائل للناس ما رأى منا فسد أمرنا ، فإذا أردتما الوصول إلىّ فاقتلا هذا الرجل » . فامتنعا منه ثم اشتغلا بقتلة ، فلما فرغا من القتل وطلبا المرأة فلم يجداها .

ثم إن الملكين عند ذلك ندما وتحسرا وتضرعا إلى الله تعالى فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا وهما يعذبان ببابل معلقان بين السماء والأرض يعلمان الناس السحر .

ثم لهم فى « الزهرة » قولان :

أحدهما – أن الله تعالى لما ابتلى الملكين بشهوة بنى آدم أمر الله الكوكب الذى يقال له : « الزُّهَرَة » وفلكها أن اهبطا إلى الأرض إلى أن كان ما كان ، فحينئذ ارتفعت الزهرة وفلكها إلى موضعهما من السماء موبخين لهما على ما شاهداه منهما .

والقول الثانى – أن المرأة كانت فاجرة من أهل الأرض وواقعاها(١) بعد شرب الخمر ، وقتل النفس ، وعبادة الصنم ، ثم علماها الاسم الذى كانا به يعرجان إلى السماء فتكلمت به وعرجت إلى السماء وكان اسمها « بيدخت » فمسخها الله وجعلها هى الزهرة .

رد الفخر على الرواية السابقة :

واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة ؛ لأنه ليس فى كتاب

(١) المواقعة والوِقاع : الجماع .

(١) من مزايا التفسير الكبير لفخرالدين الرازى أنه يكاد يخلو من الإسرائيليات ، وإذا ذكر شيئا منها ، فإنما ليرد عليه . الإسرائيليات والموضوعات للدكتور الشيخ (محمد أبو شهبة) عميد أصول الدين .

الله ما يدل على ذلك ، بل فيه ما يبطلها من وجوه :

الأول – ماتقدم من الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عن كل المعاصى .

وثانيها – أن قولهم : إنهما خيرا بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة والعذاب ، لأن الله تعالى خير بينهما من أشرك به طول عمره ، فكيف يبخل عليهما بذلك ؟

وثالثها – أن من أعجب الأمور قولهم : إنما يعلمان السحر فى حال كونهما معذبين ، ويدعوان إليه ، وهما يعاقبان .

الرأى الجدير بالاعتبار بعد فساد القول السابق :

ولما ظهر فساد هذا القول ، فنقول :

السبب فى إنزالهما وجوه :

أحدها – أن السحرة كثرت فى ذلك الزمان ، واستنبطت أبوابا غريبة فى السحر ، وكانوا يدعون النبوة ، ويتحدَّون الناس بها ، فبعث الله تعالى هذين الملكين ، لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين يدعون النبوة كذبا . ولاشك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد .

وثانيها – أن العلم بكون المعجزة مخالفةً للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة ، وبماهية[1] السحر .

والناس كانوا جاهلين بماهية السحر . فلا جَرَمَ[2] هذا تعذرت عليهم

(١) الماهية : الحقيقة ، وهى مايُسْأَل عنه بقولنا : ما هو ؟ وتكون الإجابة ببيان الماهية .

(٢) لا جَرَم ، ولا جُرْمَ . أى لابد ، أو لامحالة ، أو حقا ، وقد تحول إلى معنى القسم فنقول : لا جرم لأفعلن .

معرفة حقيقة المعجزة ، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض .

وثالثها – لايمتنع أن يقال : السحر الذى يُوقِع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله كان مباحا عندهم ، أو مندوبا ، فالله بعث الملكين لتعليم السحر لهذا الغرض !

ثم إن القوم تعلموا ذلك منهما واستعملوه فى الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله ، والألفة بين أعداء الله .

ورابعها – أن تحصيل العلم بكل شيء حسن ، ولما كان السحر منهيا عنه وجب أن يكون مُتَصَوَّرًا معلوما[1] ؛ لأن الذى لايكون متصورا امتنع النهى عنه .

وخامسها – لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، فبعث الله الملائكة ليعلموا البشر أمورًا يقدرون بها على معارضة الجن .

وسادسها – يجوز أن يكون ذلك تشديدا فى التكليف من حيث أنه إذ علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ثم منعه من استعمالها كان ذلك فى نهاية المشقة ، فيستوجب به الثواب الزائد ، كما ابتلى قوم طالوت بالنهر على ما قال : ﴿ **فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى** ﴾

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يبعد من الله تعالى إنزال الملكين لتعليم السحر . والله أعلم .

---

(١) أى ماثلة صورته فى الأذهان .

(٢) البقرة : ٢٤٩ .

المسألة الرابعة

هذه الواقعة كانت فى زمن إدريس

متى وقعت هذه الواقعة ؟

وفى زمن مَنْ من الأنبياء ؟

قال بعضهم : هذه الواقعة إنما وقعت فى زمان إدريس عليه السلام ، لأنهما إذا كان ملكين نزلا بصورة البشر لهذا الغرض فلابد من رسول فى وقتهما ليكون ذلك معجزة له ، ولا يجوز كونهما رسولين ؛ لأنه ثبت أنه تعالى لا يبعث الرسول إلى الإنس مَلَكًا .

المسألة الخامسة

القول فى هاروت وماروت - كيف نعربهما ؟

هاروتَ وماروتَ . عطف بيان[1] للملكين ، عَلَمان لهما ، وهمااسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، ولو كانا من الهرت والمرت ، وهو الكسر كما زعم بعضهم لا نصرفا .

وقرأ الزهرى : هاروتُ وماروتُ بالرفع على هما هاروتُ[2] وماروتُ .

حال هذين الملكين :

أما قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة

---

(١) العطف عند النحويين نوعان : عطف نسق ، وهو تابع يأتى بعد حرف من حروف العطف ، أما النوع الثانى فهو : عطف بيان ، وهو تابع لما قبله يشبه الصفة ، ولا يسبقه حرف عطف (العطف إما ذو بيان أو نسق) .

(٢) أى خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هما .

فلا تكفر ﴾ فاعلم أنه تعالى شرح حالهما فقال :

وهذان الملكان لايعلمان السحر إلا بعد التحذير الشديد من العمل به وهو قولهما : **﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾** .

والمراد ههنا بالفتنة : المحنة التى بها يتميز المطيع عن العاصى ، كقولهم « فتنت الذهب بالنار » إذا عرض على النار ليتميز الخالص عن المشوب(١) .

وقد بينا الوجوه فى أنه يحسن بعثة الملكين لتعليم السحر . فالمراد أنهما لايعلمان أحدًا السحر ، ولا يصفانه لأحد ، ولا يكشفان له وجوه الاحتيال حتى يبذلا له النصيحة ، فيقولا له : ﴿ إنما نحن فتنة ﴾ أى هذا الذى نصفه لك وإن كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر وبين المعجزة ، ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصى فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه ، أو تتوصل به إلى شىء من الأعراض العاجلة .

* * *

(١) المشوب الذى شابه وخالطه غيره من نحاس ونحوه ونسميه الزائف .

(٢) الأعراض جمع عَرَض ، وهو كل ما يعرض للإنسان ويكون مصيره الزوال من ثروة وتجارة وجاه فكلها أعراض زائلة ، ويقال جوهر وعرضَ ، فالجوهر ما قام بنفسه والعرض ما قام بغيره .

الفصل الثالث

فى تفسير قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه
وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله
ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم
ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق
ولَبِئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون
ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ .

[بقية الآية ١٠٢ من سورة البقرة و ١٠٣]

المسائل التى تناولها الفخرالرازى

- ماذكر فى تفسير هذا التفريق .
- ما سر الاكتفاء بهذه الصورة دون غيرها ؟
- ما المراد بإذن الله ؟
- لماذا ذكر لفظ الشراء (شروا به أنفسهم) ؟
- ما المراد بالخلاق ؟
- كيف أثبت لهم العلم أولا ثم نفاه عنهم ثانيا ؟
- علام يعود الضمير فى قوله : ﴿ ولو أنهم ﴾ ؟
- علام يُحمل قوله ﴿ آمنوا ﴾ وما المراد من التقوى ؟
- وأين جواب الشرط ؟

يقول الإمام فخرالدين الرازى :

أما قوله : ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ **ففيه مسائل :**

المسألة الأولى : ذكروا فى تفسير هذا التفريق وجهين :

الأول – أن هذا التفريق إنما يكون بأن يعتقد أن ذلك السحر مؤثر فى هذا التفريق فيصير كافرا ، وإذا صار كافرا بانت[1] منه امرأته فيحصل تفرق بينهما .

الثانى – أنه يفرق بينهما بالتمويه والحيل ، والتضريب وسائر الوجوه المذكورة .

المسألة الثانية : أنه تعالى يذكر ذلك ؛ لأن الذى يتعلمون منهما ليس إلا هذا القدر ، لكن ذكر هذه الصورة تنبيها على سائر الصور ؛ فإن استكانة المرء إلى زوجته وركونه إليها معروف زائد على كل مودة ، فنبه الله تعالى بذكر ذلك على أن السحر إذا أمكن به هذا الأمر على شدته ، فغيره به أولى .

أما قوله تعالى : ﴿ **وما هم بضارين به من أحد** ﴾ فإنه يدل على ما ذكرناه ؛ لأنه أطلق الضرر ، ولم يقصره على التفريق بين المرء وزوجه ، فدل ذلك على أنه تعالى إنما ذكره ؛ لأنه من أعلى مراتبه .

أما قوله تعالى : ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ فاعلم أن الإذن حقيقة فى الأمر ، والله لا يأمر بالسحر ، ولأنه تعالى أراد عيبهم وذمهم ولو كان قد أمرهم به لما جاز أن يذمهم عليه ، فلابد من التأويل وفيه وجوه :

---

(١) بانت : بعدت ، وانفصلت وطلقت طلاقا بائنا ، وهناك بينونة صغرى (الطلاق الرجعى) وبينونة كبرى ، لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، ومن بانت من المرتد لا تحل له مادام مرتدا .

أحدها – قال الحسن : المراد منه التخلية يعنى السحر إذا سحر إنسانا ، فإن شاء الله منعه منه ، وإن شاء خلّى بينه وبين ضرر السحر .

وثانيها – قال الأصم : المراد إلا بعلم الله ، وإنما سمى الأذان أذانا ، لأنه إعلام للناس بوقت الصلاة ، وسمى الأذان إذنا ، لأن بالحاسة القائمة به يدرك الإذن .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج** ﴾[1] أى إعلام . وقوله تعالى : ﴿ **فأذنوا بحرب من الله** ﴾[2] معناه : فاعلموا ، وقوله : ﴿ **آذنتكم على سواء** ﴾[3] يعنى : أعلمتكم .

وثالثها – أن الضرر الحاصل عند فعل السحر إنما يحصل بخلق الله وإيجاده وإبداعه ، وما كان كذلك فإنه يصح أن يضاف إلى إذن الله تعالى كما قال : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون** ﴾[4] .

ورابعها – أن يكون المراد بالإذن الأمر ، وهذا الوجه لايليق إلا بأن يفسر التفريق بين المرء وزوجه بأن يصير كافرًا ، والكفر يقتضى التفريق ، فإن هذا حكم شرعى ، وذلك لايكون إلا بأمر الله تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لَمَنِ اشتراه ما له فى الآخرة من خَلاق** ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى : لماذا ذكر لفظ الشراء ؟

(الاستعارة فى لفظ الشراء)

---

(١) ٣ : التوبة .
(٢) ٢٧٩ : البقرة .
(٣) ١٠٩ : الأنبياء .
(٤) ٤٠ : النحل .

إنما ذكر لفظ الشراء على سبيل الاستعارة لوجوه :

أحدها – أنهم لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وأقبلوا على التمسك بما تتلو الشياطين فكأنهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله .

وثانيها – أن الملكين إنما قصدا بتعليم السحر الاحتراز عنه ، ليصل بذلك الاحتراز إلى منافع الآخرة ، فلما استعمل السحر ، فكأنه اشترى بمنافع الآخرة منافع الدنيا .

وثالثها – أنه لما استعمل السحر علمنا أنه إنما تحمل المشقة ليتمكن من ذلك الاستعمال ، فكأنه اشترى بالمحن التى تحملها قدرته على ذلك الاستعمال .

المسألة الثانية : الخلاق ، وما المراد به ؟

قال الأكثرون :

الخلاق : النصيب .

قال القفال : يشبه أن يكون أصل الكلمة من الخلق ومعناه التقدير .

ومنه : خلق الأديم .

ومنه : يقال : قدر للرجل كذا درهما رزقا على عمل كذا .

وقال آخرون : الخلاق : الخلاص . ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

يدعون بالويل فيها لاخلاق لهم
إلا سرابيل قطران وأغلال

سؤال وجوابه :

بقى فى الآية سؤال وهو أنه : كيف أثبت لهم العلم أولا فى قوله :

﴿ **ولقد علموا** ﴾ ثم نفاه عنهم فى قوله : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ ؟

والجواب من وجوه :

أحدها – أن الذين علموا غير الذين لم يعلموا .

فالذين علموا هم الذين عَلَّموا السحرَ ودعوا الناس إلى تعلمه ! وهم الذين قال الله فى حقهم : ﴿ **نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون** ﴾[1]

وأما الجهال الذين يرغبون فى تعلم السحر فهم الذين لايعلمون [وهذا جواب الأخفش وقُطْرُب] .

وثانيها – لو سلمنا كون القوم واحدًا ، ولكنهم علموا شيئا وجهلوا شيئا آخر : علموا أنهم ليس لهم فى الآخرة خلاق ولكنهم جهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة ، وما حصل لهم من مضارها وعقوباتها .

وثالثها – لو سلمنا أن القوم واحد ، والمعلوم واحد ، ولكنهم لم ينتفعوا بعلمهم بل أعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم كما سمى الله تعالى الكفار « صُمًّا وبُكْماً وعُمْيًا »[2] إذ لم ينتفعوا بهذه الحواس .

ويقال للرجل فى شيء يفعله ، لكنه لا يضعه موضعه : « صنعت ولم تصنع » !!

* * *

(١) ١٠١ : البقرة .

(٢) قال تعالى : ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ ١٨ – البقرة .

علام يعود الضمير فى قوله تعالى :

﴿ ولو أنهم آمنوا واتَّقَوْا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ ؟

اعلم أن الضمير عائد إلى اليهود الذين تقدم ذكرهم فإنه تعالى لما بين فيهم الوعيد بقوله : **﴿ ولبئس ما شروا به ﴾** أتبعه بالوعد جامعا بين الترهيب والترغيب ؛ لأن الجمع بينهما أدعى إلى الطاعة والعدول عن المعصية .

علام يحمل قوله ﴿ آمنوا ﴾ ؟ وما المراد من التقوى ؟

أما قوله : ﴿ آمنوا ﴾ فاعلم أنه تعالى لما قال :

﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ﴾

ثم وصفهم بأنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين ، وأنهم تمسكوا بالسحر ، قال من بعد : **﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾**

يعنى بما نبذوه من كتاب الله .

فإن حملت ذلك على القرآن جاز .

وإن حملته على كتابهم المصدق للقرآن جاز .

والمراد من التقوى : الاحتراز عن فعل المنهيات وترك المأمورات .

أين جواب الشرط ؟

أما قوله تعالى : **﴿ لمثوبة من عند الله خير ﴾** ففيه وجوه :

أحدها — أن الجواب محذوف ، وتقديره : ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا .

إلا أنه تركت الجملة الفعلية إلى هذه الاسمية لما فى الجملة الاسمية من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها .

فإن قيل : هلَّا قيل لَمَثوبَةُ الله خير ؟

قلنا : لأن المراد : لَشَىْءٌ من ثواب الله خير لهم .

وثانيها : يجوز أن يكون قوله : ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ تَمَنِّياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانَهم .

كأنه قيل : وليتهم آمنوا .. ثم ابتدأ : « لمثوبة من عند الله خير »

* * *

الباب الثالث

النفـــاثات فى العقـــــد

وبماذا يكون التحصين والعلاج ؟

من التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى



الفصل الأول

فى
التعوذ بالمعوذتين

سورة الفلق مكية وآياتها خمس

تفسير – بعض العارفين – سورتى الإخلاص والفلق ، وسر ختام القرآن بسورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الإمام فخرالدين الرازى : قبل الخوض فى التفسير لابد من تقديم فصلين[1] :

احدهما : سمعت بعض العارفين فسر هاتين السورتين على وجه عجيب ، قال : إنه سبحانه لما شرح أمر الإلهية فى سورة الإخلاص ذكر هذه السورة عقبها فى شرح مراتب مخلوقات الله فقال أولا :

﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾

وذلك لأن ظلمات العدم غير متناهية ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى فلق تلك الظلمات بنور التكوين والإيجاد والإبداع ؛ فلهذا قال :

﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ .

---

(١) تقديم وحكاية فخرالدين الرازى ، وسوف نرجع معه إلى التفسير عندما يرجع إليه حرصا على كمال الفائدة ، وليتسنى للقارىء المسلم الإلمام بكل جوانب الموضوع .

ثم قال : ﴿ من شر ما خلق ﴾ والوجه فيه : أن عالم الممكنات على قسمين : عالم الأمر ، وعالم الخلق ، على ما قال : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾

عـالم الأمـر :

وعالم الأمر كله خيرات محضة ، بريئة عن الشرور والآفات .

عـالم الخلق :

أما عالم الخلق ، وهو عالَمُ الأجسام والجسمانيات ، فالشر لا يحصل إلا فيه .

لماذا سمى عالم الخلق بعالم الأجسام والجسمانيات ؟

وإنما سمى عالم الأجسام والجسمانيات بعالم الخلق ؛ لأن الخلق هو التقدير : والمقدار من لواحق الجسم ، فلما كان الأمر كذلك ، لا جرم قال : أعوذ بالرب الذى فلق ظلمات بحر العدم بنور الإيجاد والإبداع من الشرور الواقعة فى عالم الخلق ، وهو عالم الأجسام والجسمانيات .

عالم الخلق أنواع وأقسام

ثم من الظاهر أن الأجسام ، إما : أثرية[1] ، أو عنصرية .

والأجسام الأثرية خيرات ؛ لأنها بريئة عن الاختلال والفطور ، على ما قال : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾؟!

---

(١) لعله يقصد أثيرية نسبة إلى الأثير .

وأما العنصريات فهى : إما نبات أو جماد أو حيوان .

أما الجمادات فهى خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمة فيها خالصة والأنوار عنها بالكلية زائلة . وهو المراد من قوله :

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾

وأما النبات فالقوة الغازية النباتية هى التى تزيد فى الطول والعرض والعمق معا فهذه النباتية كأنها تنفث فى العقد الثلاث .

وأما الحيوان ، فالقوى الحيوانية هى الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنية ، والشهوة ، والغضب ، وكلها تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله ، وهو المراد من قوله :

﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾

مراتب درجات النفس الإنسانية فى الترقى :

ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية وهى مستعيذة فلا تكون مستعاذا منها فلا جرم قطع هذه الصورة وذكر بعدها فى « سورة الناس » مراتب درجات النفس الإنسانية فى الترقى ، وذلك لأنها بأصل فطرتها مستعدة لأن تنتفش بمعرفة الله ومحبته إلا أنها تكون أول الأمر خالية عن هذه المعارف بالكلية .

ثم إنه فى المرتبة الثانية يحصل فيها علوم أولية بديهية يمكن التوصل بها إلى استعلام المجهولات الفكرية ، ثم فى آخر الأمر تلك المجهولات الفكرية من القوة إلى الفعل ، فقوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ إشارة إلى المرتبة الأولى من مراتب النفس الإنسانية وهى حال كونها خالية من جميع العلوم : البديهية والكسبية ؛ وذلك لأن النفس فى تلك المرتبة تحتاج إلى مُرَبٍّ يربيها ويزينها بتلك المعارف البديهية .

ثم فى المرتبة الثانية ، وهى عند حصول هذه العلوم البديهية يحصل لها ملكة من الانتقال منها إلى استعلام العلوم الفكرية ، وهو المراد من قوله :

﴿ ملك الناس ﴾ .

ثم فى المرتبة الثالثة وهى عند خروج تلك العلوم الفكرية من القوة إلى الفعل يحصل الكمال التام للنفس وهو المراد من قوله :

﴿ إِلٰه النَّاس ﴾

فكأن الحق – سبحانه وتعالى – يسمى نفسه بحسب كل مرتبة من مراتب النفس الإنسانية بما يليق بتلك المرتبة .

ثم قال : ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ . والمراد منه القوة الوهمية ، والسبب فى إطلاق اسم الخناس على الوهم ، أن العقل والوهم ، قد يتساعدان على تسليم بعض المقدمات . ثم إذا آل الأمر إلى النتيجة ، فالعقل يساعد على النتيجة ، والوهم يخنس ، ويرجع ، ويمتنع عن تسليم النتيجة ؛ فلهذا السبب يسمى الوهم (بالخنَّاس) .

ضرر هذا الخناس على العقل عظيم :

ثم بين – سبحانه – أن ضرر هذا الخناس عظيم على العقل ، وأنه قلما ينفك أحد عنه ، فكأنه سبحانه بين فى هذه السورة :

مراتب الأرواح البشرية ، ونبه على عدوها ، ونبه على ما به يقع الامتياز بين العقل وبين الوهم ، وهناك آخر درجات مراتب النفس الإنسانية ، فلا جرم وقع ختم الكتاب الكريم والفرقان العظيم عليه .

* * *

الفصل الثانى

فى سبب نزول هذه السورة وما ذُكِر فيه من وجوه

ذكروا فى سبب نزول هذه السورة وجوها :

أحدها – روى أن جبريل عليه السلام أتاه ، وقال : إن عِفريتا من الجن يكيدك ، فقال : إذا أويت إلى فراشك قل : أعوذ بِرَبِّ ... « السورتين » .

وثانيها – أن الله تعالى أنزلهما عليه ، ليكونا رُقْيَةً من العين .

عن سعيد بن المسيب أن قريشاً قالوا : نتجوَّع فنُعين محمدا[1] ففعلوا . ثم أتوه وقالوا : ما أشدَّ عضدَكَ ، وأقوى ظهرك ، وأنضرَ وجهَكَ فأنزل الله المعَوِّذتين .

قول جمهور المفسرين :

وثالثها – وهو قول جمهور المفسرين : أن لبيد بن أعصم اليهودى سحر النبى ﷺ فى إحدى عشرة عقدة ، وفى وَتَرٍ دَسَّه فى بئر يقال لها :

(١) وعند الجوع يكون الإحساس والشعور بالحرمان ، ونظرات الجائع المحروم لها وقعها وأثرها فيمن يحيا فى نعمة . ونعين محمدًا : نصيبه بالعين .

(ذروان) فمرض رسول الله ﷺ واشتد عليه ذلك ثلاث ليالٍ ؛ فنزلت المعوذتان لذلك ، وأخبره جبريل بموضع السحر ، فأرسل عليا عليه السلام ، وطلحة وجاءا به ، وقال جبريل للنبى حل عُقَدَهُ واقرأ آية ففعل ، وكان كلَّما قرأ آية انحلت عقدة ؛ فكان يجد بعض الخفة والراحة .

إنكار المعتزلة ذلك بأسرهم وأدلتهم على ذلك :

واعلم أن المعتزلة أنكروا ذلك بأسرهم : قال القاضى : هذه الرواية باطلة

١ – وكيف يمكن القول بصحتها والله تعالى يقول : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ وقال : ﴿ **ولا يُفْلِحُ الساحر حيث أتى** ﴾ .

٢ – **ولأن تجويزه يُفْضى إلى القدح[1] فى النبوة .**

٣ – **ولأنه لو صح ذلك لكان من الواجب أن يصلوا إلى الضرر لجميع الأنبياء والصالحين ، ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكل ذلك باطل .**

٤ – **ولأن الكفار كانوا يعيرونه بأنه مسحور ؛ فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين فى تلك الدعوة ، ولحصل فيه – عليه السلام – ذلك العيب . ومعلوم أن ذلك غير جائز .**

الـردُّ عليهم :

قال الأصحاب : هذه القصة قد صحت عند جمهور أهل النقل . والوجوه المذكورة قد سبق الكلام عليها فى سورة البقرة[2] .

---

(١) الطعن فيها .

(٢) حيث تضمنها كتابنا هذا عند تناول قوله الله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ... ﴾ .

أما قوله : « الكفار كانوا يعيبون الرسول عليه السلام بأنه مسحور فلو وقع ذلك لكان الكفار صادقين فى ذلك القول » .

(فجوابه) أن الكفار كانوا يريدون بكونه مسحورًا أنه مجنون أزيل عقله بواسطة السحر ؛ فلذلك ترك دينهم .

فأما أن يكون مسحورا بألم يجده فى بدنه ، فذلك مما لاينكره أحد .

القول الفصل فى هذا الأمر :

وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطانا ولا إنسيا ، ولا جنيا يؤذيه فى دينه وشرعه ونبوته ، فأما الإضرار ببدنه فلا يبعد . وتمام هذه المسألة قد تقدم فى سورة البقرة[٢] .

عودة إلى سورة الفلق

ولنرجع إلى التفسير : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾

فيه مسائل : **المسألة الأولى**

الفوائد فى قوله : قل

فى قوله : **قل فوائد :**

أحدها – أنه سبحانه لما أمر بقراءة سورة الإخلاص تنزيها عما لا يليق به فى ذاته وصفاته ، وكان ذلك من أعظم الطاعات ، فكأن العبد قال : إلٰهنا ، هذه الطاعة عظيمة جدا لا أثق بنفسى فى الوفاء بها ، فأجاب بأن قال :

﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ .

(٢) وتضمنه صدر هذا الكتاب فى الدراسة التى قدمها الإمام الرازى .

أى استعذ بالله والتجىء إليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على أكمل الوجوه .

وثانيها – أن الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله وصفته فكأن الرسولَ ﷺ قال : كيف أنجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا وقالوا فيك ما لايليق ؟! فقال الله : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ . أى استعذ بى حتى أصونك من شرهم .

وثالثها – كأنه تعالى يقول : من التجأ إلى بيتى شرفته وجعلته آمنا فقلت : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾[1] ، فالتجىء أنت أيضا إلى حتى أجعلك آمناً . فـ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ .

المسألة الثانية

هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ أم لا ؟

المسألة الثانية – اختلفوا فى أنه هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ أم لا ؟

من يقول بالجواز وأدلته (الثمانية) :

منهم من قال : إنه يجوز واحتجوا بوجوه :

أحدها – ماروى أن رسول الله ﷺ اشتكى ، فرقاه جبريل عليه السلام ، فقال : « بسم الله أرقيك ، من كل شىء يُؤذيك ، والله يشفيك » .

وثانيها – قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء :

---

(١) ٩٧ : آل عمران .

« بسم الله الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شرِّ كُلِّ عِرْقٍ نَعَّار[1] ، ومن شرِّ حَرِّ النار » .

وثالثها – قال عليه السلام من دخل على مريض لم يحضره أجله ، فقال : « أسألُ الله العظيمَ ربَّ العَرْشِ العظيم أن يَشْفيَك – سَبْعَ مَرَّاتٍ – شُفِيَ » .

ورابعها – عن على – رضى الله عنه – قال : « كان رسولُ الله ﷺ إذا دخل على مريض قال : أَذْهِبِ البَاسَ[2] ربَّ الناس . اشْفِ أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت » .

وخامسها – عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذُ الحسنَ والحُسَيْنَ يقول :

« أعيذُكما بكلماتِ الله التامَّة من شيطانٍ وهامَّة ، ومن كل عين لامَّة »[3] ويقول : « هكذا كان أبى إبراهيم يُعَوِّذ ابنيه : إسماعيل وإسحق .

وسادسها – قال عثمان بن أبى العاص الثقفى : قدمت على رسول الله وبى وجع قد كاد يُبْطِلني فقال رسولُ الله ﷺ : « اجعل يدك اليمنى عليه ، وقل : « بسم الله ، أعوذُ بعزة الله وقُدرتِه من شر ما أجد » (سبع مرات) ففعلت ذلك فشفانى الله .

وسابعها – روى أنه عليه السلام كان إذا سافر فنزل منزلا يقول : يا أرضُ : ربى وربُّكِ الله ، أعوذُ بالله من شرِّك وشرِّ ما فيك وشرِّ مايخرج

(١) نعر العرق : فار منه الدم . أو صوت لخروج الدم .

(٢) الباس : البأس ، والشدة ونحن نقول للمريض عندما نلقاه : لابأسَ عليك وتنطق تخفيفا بلا همزة شأن الكلمات المهموزة قال الشاعر :

ما على ظنى باسُ ... يجرح الدهر ويأسُو

(٣) هامة وجمعها هوام . مايدب على وجه الأرض من خشاش الأرض ويؤذى من الحشرات ، والعين اللّامة : المصيبة بسوء .: القاموس المحيط ج : ٢ .

منك ، وشرِّ ما يَدِبُّ عليك وأعوذ بالله من أسدٍ وأسْوَدَ[1] ، وحيَّةٍ وعقرب . ومن شرِّ ساكنى البلد ، ووالدٍ وما ولد »

وثامنها – قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى شيئا من جسده قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين فى كفه اليمنى ومسح بها المكان الذى يشتكى .

المانعون من الرقى ودليلهم :

ومن الناس من منع من الرقى ؛ لما روى عن جابر قال : « نهى رسولُ الله ﷺ عن الرُّقى » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« إن لله عبادًا لا يكتَوُون ، ولا يَستَرْقُون[2] ، وعلى ربِّهم يتوكلون »

وقال عليه السلام :

« لم يتوكلْ على الله من اكتوى واسترقى »

الـرد عليـهم :

وأجيب عنه :

بأنه يحتمل أن يكون النَّهى عن الرُّقَى المجهولة التى لا تُعْرَف حقائقها . فأما ما كان له أصل موثوق ، فلا نهى عنه .

اختلافهم فيما يعلق :

واختلفوا فى التعليق ؛ فروى أنه عليه السلام قال :

---

(١) الأسود : الحية العظيمة .

(٢) لا يعالجون أنفسهم بالكى بالنار ولا بالرُّقى .

« من علّق شيئًا وُكِلَ إليه »[1]

وعن ابن مسعود ، أنه رأى على أم ولده تميمة[2] مربوطة بعضدها فجذبها جذبا عنيفا فقطعها .

ومنهم من جوزه : سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلّق على الصبيان فرخص فيه .

اختلاف رأيهم فى النفث :

واختلفوا فى النفث أيضا .. ؛

رأى من يجيزونه وأدلتهم :

فروى عن عائشة أنها قالت : « كان رسول الله ﷺ ينفث على نفسه – إذا اشتكى – بالمعوِّذات ، ويمسح بيده ، فلما اشتكى رسول الله ﷺ وجعه الذى تُوُفِّىَ فيه طفقت[3] أنفث عليه بالمعوِّذات التى كان ينفث بها على نفسه » .

وعنه – عليه السلام – « أنه كان إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه ، وقرأ فيهما بالمعوِّذات ثم مسح بهما جسده »

---

(١) أى فليطلب الشفاء منه ولا ينظر الله إليه لأنه اتجه إلى غيره .

(٢) التميمة مايعلق أو يربط من التعاويذ وهى أيضا كما فى القاموس خرزة رقطاء تُنْظَم فى سَيْر ثم يعقد فى العنق . وجاء فى المنجد التميمة : خرزة أو ما يشبهها كان الأعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفع الأرواح . جمعها تمائم وتميمات . أ هـ ويقول الشاعر فى عدم جدوى التمائم أمام الموت :

وإذا المنيَّـــةُ أنشبت أظفارهــــا
ألفـــيت كل تميمـــة لا تنفـــع

(٣) طفق يفعل كذا : أخذ وبدأ ، وطفق من مجموعة أفعال تدل على البدء فى الخبر تسمى : أفعال الشروع منها : شرع – هبَّ – قام – أنْشَأ – جعل . وكلها من أخوات كان غير أن خبرها يجب أن يكون جملة فعلية .

من ينكرون النفث وحجتهم :

ومنهم من أنكر النفث ، قال عِكرمة : لا ينبغى للراقى أن ينفث ولا يمسح ، ولا يعقد .

وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون النفث فى الرقى .

وقال بعضهم : دخلت على الضحاك وهو وجيع فقلت : ألا أعَوِّذُك يا أبا محمد ؟ قال : بلى ، ولكن لا تنفث ، فعوذته بالمعَوِّذتين .

قال الحليمى : الذى روى عن عكرمة : أنه ينبغى للراقى أن لاينفث ولا يمسح ، ولا يعقد ؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث فى العقد مما يستعاذ منه ، فوجب أن يكون منهيا عنه .

متى يكون النفث فى العقد مذموما ؟

إلا أن هذا ضعيف ؛ لأن النفث فى العقد إنما يكون مذموما إذا كان سحرا مضرا بالأرواح والأبدان .

فأما إذا كان هذا النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب ألا يكون حراما .

* * *

المسألة الثالثة

الاستعاذة برب الفلق وسرها

رُبَّ قائلٍ يقول :

إنه تعالى قال فى مفتاح القراءة[1] ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ ، وقال هنا : ﴿ **أعوذ برب الفلق** ﴾ . وفى موضع آخر : ﴿ **وقل ربِّ أعوذُ بِكَ من هَمَزاتِ الشياطين** ﴾[2] وجاء فى الأحاديث : « أعوذ بكلمات الله التامات » ولاشك أن أفضل أسماء الله هو الله ، وأما الرب فإنه قد يطلق على غيره قال تعالى : ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾؟![3] فما السبب فى أنه تعالى عند الأمر بالتعوذ لم يقل : قل أعوذ بالله بل قال : ﴿ برب الفلق ﴾ ؟

الإجـــابة :

وأجابوا عنه من وجوه :

أحدها – أنه فى قوله : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيْطان الرجيم** ﴾ إنما أمره بالاستعاذة هناك لأجل قراءة القرآن . وإنما أمره بالاستعاذة ههنا فى هذه السورة لأجل حفظ النفس والبدن عن السحر ، والمُهِمُّ الأوَّلُ أعظم ، فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم .

وثانيها – أن الشيْطان يبالغ حال منعك من العبادة مبالغة فى إيصال الضُّرِّ إلى بدنك وروحك ، فلا جرم ذكر الاسم الأعظم هناك دون ههنا .

وثالثا – أن اسم الرب يشير إلى التربية فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلةً إلى تربيته له فى الزمان الآتى .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [٩٨ – النحل] .

(٢) ٩٧ : المؤمنون .　　(٣) ٣٩ : يوسف .

أَوْ كأَنَ العبدَ يقول : التربية والإحسان حِرْفَتُك فلا تُهْملنى ولا تُخيِّب رجائى !

ورابعها – أن بالتربية صار شارعا فى الإحسان ، والشروع ملزم .

وخامسها – أن هذه السورة من آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تنبيها على أنه سبحانه لا تنقطع عنك تربيته وإحسانه .

فإن قيل : إنه ختم القرآن على اسم الإله حيث قال : ﴿ **ملك الناس إله الناس** ﴾ .

قلنا : فيه لطيفة وهى : كونه تعالى قال : قل أعوذ بمن هو ربى ، ولكنه إله قاهر لوسوسة الخناس فهو كالأب المشفق الذى يقول : ارجع عند مهماتك إلى أبيك المشفق عليك الذى هو كالسيف القاطع والنار المحرقة لأعدائك ، فيكون هذا من أعظم أنواع الوعد بالإحسان والتربية .

وسادسها – كأن الحقَّ قال لمحمد – عليه السلام :

قلبُك لى فلا تُدْخل فيه حب غيرى !

ولسانك لى فلا تذكر به أحدا غيرى !

وبدنك لى فلا تَشْغَلْه بخدمة غيرى !

وإذا أردت شيئا فلا تطلبه إلا منى !

فإذا أردت العلم فقل : ﴿ **رب زِدنى علما** ﴾[1] !

وإذا أردت الدنيا فـ ﴿ **اسألوا الله من فضله** ﴾[2]

وإن خفت ضررًا فقل : ﴿ **أعوذ برب الفلق** ﴾

---

(١) ١١٤ : طه .

(٢) الآية : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ [٣٢ : النساء] .

فإنى أنا الذى وصفت نفسى بأنى خالق الإصباح ، وبأنى فالق الحب والنوى ، وما فعلت هذه الأشياء إلا لأجلك ؛ فإذا كنت أفعل هذه الأمور لأجلك ؛ أفلا أصونك عن الآفات والمخافات ؟!!

المسألة الرابعة

التـأويل فى الفـلق

ذكروا فى الفلق وجوها :

أحدها – أنه الصبح وهو قول الأكثرين ، قال الزجاج : لأن الليل يفلق عنه الصبح ويفرق . فَعَل : بمعنى مفعول[1] . يقال : هو أبيَن من فَلَق الصبح ومن فرق الصبح .

تخصيصه فى التعوذ :

وتخصيصه فى التعوذ لوجوه ثمانية :

الأول – أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضا أن يدفع عن العائذ كل مايخافه ويخشاه .

الثانى – أن طلوع الصبح كالمثال لمجىء الفرج ، فكما أن الإنسان فى الليل يكون منتظرا لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقبا لطلوع صباح النجاة .

الثالث – أن الصباح كالبشرى فإن الإنسان فى الظلام يكون كلحم على وضم[2] .

---

(١) أى فَلَق الذى هو على وزن فَعَل بمعنى مفعول : أى مفلوق .

(٢) الوضَم : ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير ، ونرى القصاب (الجزار) =

فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان ، وبشر بالفرج ، فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة فى وقت السحر[1] ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قل أعوذُ بربٍّ .. ﴾ يعطى إنعام فلق الصبح قبل السؤال ، فكيف بعد السؤال ؟

الرابع – قال بعضهم : إن يوسف عليه السلام لما ألقى فى الجب وَجِعت ركبته وجعا شديدًا فبات ليلته ساهرا ، فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام بأنّ الله يسليه ويأمره بأن يدعو ربه فقال : يا جبريل ، ادعُ أنت وأؤمن أنا ، فدعا جبريل وأمَّن يوسف[2] ، فكشف الله ما كان به من الضر ، فلما طاب وقت يوسف قال جبريل : وأنت تدعو أيضا وأؤمن أنا : فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء فى ذلك الوقت ، فلا جرم ، ما من مريض إلا ويجد نوع خفة فى آخر الليل .

وروى أن دعاءه فى الجب :

ياعُدَّتى فى شدتى ، ويا مُؤْنسِى فى وَحْشَتى .

ويا راحَم غُربتى ، ويا كاشفَ كُربتى ، ويا مُجيبَ دعوتى ويا إلهى وإله آبائى إبراهيم وإسحقَ ويعقُوبَ :

ارحم صِغَرَ سنى ، وضعفَ ركنى ، وقلة حيلتى يا حَىُّ يا قيُّوم ، يا ذا الجلال والإكرام .

الخامس – لعل تخصيصه بالذكر فى هذا الموضوع ؛ لأنه وقت دعاء

= يستخدم خشبة يقطع عليها اللحم . ويقال : تركهم لحما على وضم : أوقعهم فذللهم وأوجعهم – القاموس المحيط .

(١) السحر : قبيل الصبح .

(٢) قال بعد الدعاء من جبريل : آمين . أى استجب يارب ، والمأمومون يؤمنون فى صلاتهم وراء الإمام عندما ينتهى من قراءة الفاتحة بقوله : ﴿ ولا الضالين ﴾ فيؤمنون قائلين : آمين .

المضطرين ، وإجابة الملهوفين فكأنه يقول :

قل أعوذ برب الوقت الذى يفرج فيه عن كل مهموم .

السادس – يحتمل أنه خص الصبح بالذكر ؛ لأنه أُنْمُوذَج من يوم القيامة ؛ لأن الخلق كالأموات ، و الدور كالقبورِ ، ثم منهم من يخرج من داره مفلسا عريانًا لا يلتفت إليه ، ومنهم من كان مديونا فيجر إلى الحبس ، ومنهم من كان ملكا مطاعا فتقدم إليه المراكب[1] ، ويقوم الناس بين يديه .

كذا فى يوم القيامة : بعضهم مفلس عن الثواب عارٍ عن لباس التقوى يجر إلى الملك الجبار ، ومن عبد كان مطيعا لربه فى الدنيا ، فصار ملكا مطاعا فى العقبى يقدم إليه البُرَاق .

السابع – يحتمل أنه تعالى خص الصبح بالذكر لأنه وقت الصلاة الجامعة لأهوال القيامة :

فالقيام فى الصلاة : يذكر القيام يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **يوم يقوم الناسُ لرب العالمين** ﴾[2] .

والقراءة فى الصلاة : تذكر قراءة الكتب .

والركوع فى الصلاة : يذكر من يوم القيامة قوله : ﴿ **ناكسوا رءوسهم** ﴾[3] .

والسجود فى الصلاة : يذكر قوله تعالى : ﴿ **ويُدْعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾[4]

والقعود : يذكر قوله : ﴿ **وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً** ﴾[5]

---

(١) المراكب : جمع مَرْكَب بفتح الميم والكاف كل مايركب ويمتطى ومنه قول شوقى فى الطائرة :
مَرْكَبٌ لو سلف الدهر به كان إحدى معجزات القدماء

(٢) ٦ : المطففين .
(٣) ١٢ : السجدة .
(٤) ٤٢ : القلم .
(٥) ٢٨ : الجاثية .

فكأن العبد يقول :

كما خلصتنى من ظلمة الليل فخلصنى من هذه الأهوال ، وإنما خص وقت صلاة الصبح ؛ لأن لها مزيد شرف على ما قال : ﴿ **إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾[1]. أى تحضرها ملائكة الليل والنهار .

الثامن – أنه وقت الاستغفار والتضرع على ما قال : ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾[2].

القول الثانى فى الفلق

القول الثانى : فى الفلق أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾[3].

والجبال عن العيون : ﴿ **وإن منها لما يتفجر منه الأنهار** ﴾[4]

والسحاب عن الأمطار ، والأرحام عن الأولاد

والبيض عن الفرخ ، والقلوب عن المعارف .

وإذا تأملت الخلق تبين لك أنه عن انقلاب ، بل العدم كأنه ظلمة والنور كأنه الوجود ، وثبت أنه كان الله فى الأزل ولم يكن معه شيء أَلْبَتَّةَ ، فكأنه – سبحانه – هو الذى فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد والتكوين والإبداع فهذا هو المراد من الفلق .

وهذا التأويل أقرب من وجوه :

أحدها – هو أن الموجود : إما الخالق ، وإما الخلق ، فإذا فسرنا الفلق

---

(١) ٧٨ : الإسراء .
(٢) ١٧ : آل عمران .
(٣) ٩٥ : الأنعام .
(٤) ٧٤ : البقرة .

بهذا التفسير صار كأنه قال :

قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومُكَوِّنِ كل المحدثات والمبدعات . فيكون التعظيم فيه أعظم ، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة فى هذا المعنى .

وثانيها – أن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والممكن لذاته يكون موجودا بغيره ، معدوما فى حد ذاته ، فإذن كل ممكن فلابد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه ، ويبقيه حال بقائه . فإن الممكن حال بقائه يفتقر إلى المؤثر والتربية ، إشارة لا إلى حال الحدوث ، بل إلى حال البقاء ، فكأنه يقول :

إنك لست محتاجا إلى حال الحدوث فقط ، بل فى حال الحدوث وحال البقاء معا فى الذات وفى جميع الصفات . فقوله ﴿ برب الفلق ﴾ يدل على احتياج كل ما عداه إليه حالتى : الحدوث والبقاء فى الماهية والوجود بحسب الذوات والصفات ، وسر التوحيد لا يصفو عن شوائب الشرك إلا عند مشاهدة هذه المعانى .

وثالثها – أن التصوير والتكوين فى الظلمة أصعب منه فى النور فكأنه يقول : أنا الذى أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار ، وظهور الأضواء ، ومثل ذلك ما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[1] .

القول الثالث – أنه وادٍ فى جهنم أَوْ جُبٌّ فيها من قولهم لِمَا اطْمَأَن[2] من الأرض : الفلق ، والجمع فلقان .

وعن بعض الصحابة : أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال : لا أبالى ، أليس من ورائهم الفلق ؟ فقيل

---

(١) ٦ : آل عمران .

(٢) قال الفيومى فى المصباح المنير : المطمئن من الأرض : المنخفض .

وما الفلق ؟ قال : بيت فى جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره .

وإنما خصه بالذكر ههنا ؛ لأنه هو القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد أوهام الخلق .

ثم قد ثبت أن رحمته أعظم وأكمل وأتم من عذابه ، فكأنه يقول : يا صاحبَ العذاب الشديد ، أعوذ برحمتك التى هى أعظم وأكمل وأتم ، وأسبق ، وأقدم من عذابك .

* * *

قوله تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾

هل المراد إبليس خاصة ؟

هل المستعاذ منه واقع بقضاء الله تعالى أو غير واقع ؟

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : فى تفسير هذه الآية وجوه :

أحدها – قال عطاء[1] عن ابن عباس : يريد إبليس خاصة ؛ لأن الله تعالى لم يخلق خلقا هو شر منه .

ولأن السورة إنما نزلت فى الاستعاذة من السحر ، وذلك إنما يتم بإبليس وبأعوانه وجنوده .

---

(١) عطاء بن رباح بلغ مرتبة الإمامة والفقه وأسندت إليه الفتوى بمكة قال ابن عباس فيه لأهل مكة : « تجتمعون عليَّ وعندكم عطاء » ؟ وقال فيه أبوحنيفة : « ما رأيت أفضل من عطاء بن أبى رباح » وهو من أعلام المدرسة المكية فى التفسير وكانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة .

وثانيها – يريد : جهنم ، كأنه يقول : قل أعوذ برب جهنم ومن شدائد ما خلق فيها .

وثالثها – ﴿ من شر ما خلق ﴾ يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرها .

ويجوز أن يدخل فيه من يؤذينى من الجن والإنس أيضا ووصف أفعالها بأنها شر ، وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة ما ، لأن الغلبة ما حصلت فى جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة ما فيه ، لأن العبرة بالأغلب أيضا ، ويدخل فيه شرور الأطعمة المُمْرِضَة ، وشرور الماء والنار .

اعتراض .. وجوابه : فإن قيل : الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ، ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء . على قول أكثر المتكلمين .

أو متولدة من قُوًى خلقها الله تعالى فى هذه الأجرام ، على ما هو قول جمهور الحكماء وبعض المتكلمين .

وعلى التقديرين فيصير حاصل الآية : أنه تعالى أمر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله ، فما معناه ؟!!

الإجـــابة :

قلنا : وأى بأس بذلك ؟ ولقد صرح عليه السلام بذلك فقال : « وأعوذ بك منك »

ورابعها – أراد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع المحن والآفات .

زعم الجبائى والقاضى وما يدل عليه :

وزعم الجُبَّائِى والقاضى[1] : أن هذا التفسير باطل ، لأن فعل الله تعالى لايجوز أن يوصف بأنه شر ، قالوا : ويدل عليه وجوه ثلاثة :

الوجه الأول – أنه يلزم على هذا التقدير أن الذى أَمَرَ بالتعوذ منه هو الذى أمرنا بالتعوذ به وذلك متناقض .

الوجه الثانى – أن أفعال الله كلها حكمة وصواب ، وذلك لا يُجَوّز أن يقال : إنه شر .

الوجه الثالث – أن فعل الله لو كان شرا لوصف فاعله بأنه شرير ويتعالى الله عن ذلك .

والجـــواب

عن الأول : أنا بينا أنه لا امتناع فى قوله : « أعوذ بك منك »

وعن الثانى : أن الإنسان لَمَّا تألَّم به فإنه يُعَدُّ شرا ، فورد اللفظ على وفق قوله : كما فى قوله : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾[3] .

وعن الثالث : أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية[4] ، ثم الذى يدل على

(١) علمت من قبل أن المعتزلة من أعظم الناس كلاما وجدالا ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل كتاب أبى على الجبائى ، والتفسير الكبير للقاضى عبدالجبار بن أحمد الهمدانى ، ومثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ، ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ، لا فى رأيهم ، ولا فى تفسيرهم .

(٢) ٤٠ : الشورى .

(٣) ١٩٤ : البقرة .

(٤) توقيفية : أى يتوقف الأمر فيها على السماع وليس لنا أن نصطلح على أسماء من عندنا نطلقها عليه سبحانه فهى توقيفية لا اصطلاحية .

جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى : ﴿ **إذا مسه الشر جزوعا** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض** ﴾ .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار »[2] .

المسألة الثانية : طعن بعض الملاحدة

فى قوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ !! وبم نرد عليهم ؟

طعن بعض الملاحدة فى قوله : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق** ﴾ من وجوه ثلاثة :

أحدها – أن المستعاذَ منه ، أَهُوَ واقع بقضاء الله وقدره ، أوْ لَابقضاء الله ولا قدره ؟

فإن كان الأول : فكيف أمر أن يستعيذ بالله منه ؟!! وذلك لأن ما قضى الله به وقدره فهو واقع فكأنه تعالى يقول : الشيء الذى قضيت بوقوعه ، وهو لابد واقع فاستعذ بى منه حتى لا أوقعه . وإن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح فى ملك الله وملكوته .

وثانيها – أن المستعاذ منه : إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له ، فلا فائدة فى الاستعاذة !

وإن كان معلوم اللا وقوع ؛ فلا حاجة إلى الاستعاذة .

---

(١) ٢٠ : المعارج .

(٢) الطوارق : جمع طارقة . وهى الداهية .

وثالثها — أن المستعاذ منه إن كان مصلحة ، فكيف رغب المكلف فى طلب دفعه ومنعه ؟!

وإن كان مَفسدةً فكيف خلقه وقدره ؟!!

الإجـــابة

واعلم أن الجواب عن أمثال هذه الشبهات أن يقال : إنه : ﴿ **لا يُسْأل عما يَفْعَل** ﴾[1] .

وقد تكرر هذا الكلام فى هذا الكتاب .

* * *

الغاسق إذا وقب !!

وما يتعلق بذلك من سحر وتنجيم

قوله تعالى : ﴿ **ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَب** ﴾

ما الغاسق إذا وقب ؟

ذكروا فى الغاسق وجوها :

أحدها — أن الغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه من قوله : ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾[2] .

ومنه غسقت العين إذا امتلأت دمعا ، وغسقت الجراحة إذا امتلأت

(١) ٢٣ : الأنبياء .

(٢) الغَسَق : ظلمة أول الليل

دما . وهذا قول الفرَّاء وأبى عبيدة وأنشد ابن قيس :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والغرقا

وقال الزَّجَّاج[1] : الغاسق فى اللغة هو : البارد ، وسمى الليل غاسقا ؛ لأنه أبرد من النهار ، ومنه قوله : إنه الزمهرير .

وثالثها – قال قوم : الغاسق والغسَّاق هو السائل من قولهم : غسقت العين تغسق غسقا إذا سالت بالماء ،

وسمى اللّيل غاسقا لا نصباب ظلامه على الأرض .

معنى الوُقُوب مما يتعلق باللغة :

أما الوقوب : فهو الدخول فى شىء آخر بحيث يغيب عن العين . يقال : وَقَبَ يَقِبُ وقوبا إذا دخل . والوقبة : النُّقرة ؛ لأنه يدخل فيها الماء . والإيقاب : إدخال الشىء فى الوقبة .

أقوال المفسـرين :

وللمفسرين فى الآية أقوال خمسة :

أحدها – أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل . وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل ؛ لأن فى الليل تخرج السباع من آجَامِها[2] ، والهوامُّ من مكانها ، ويهجم السارق والمكابر ويقع الحريق ويقل فيه الغوث ؛ ولذلك لو شهر معتدٍ سلاحا على إنسان ليلا فقتله . المشهور عليه لا يلزمه قصاص ، ولو كان نهارًا يلزمه ؛ لأنه يوجد فيه الغوث !

(١) أبو إسحق إبراهيم بن السرى الزجاج من أصحاب أبى العباس محمد ابن يزيد ومن أئمة النحو ، وهو أستاذ الزجاجى الذى نسب إليه أخذ النحّو عن ثعلب ثم مال إلى المبرد ولزمه. مات سنة ٣١١ هـ وتجد ترجمته فى بغية الوعاة ١٧٩ وفى إنباه الرواة ١ : ١٥٩ .

(٢) الآجام جمع أجمة الشجر الكثيف الملتف ، وتأجم الأسد : دخل فى أجمته .

الجن .. والشياطين .. والليل .

وقال قوم : إن فى الليل تنتشر الأرواح المؤذية المسماة بالجن والشياطين ؛ وذلك لأن قوة شعاع الشمس كأنها تقهرهم . أما فى الليل فيحصل لهم نوع استيلاء .

وثانيها – أن الغاسق إذا وقب هو القمر .

قال ابن قتيبة(١) : الغاسق القمَر سُمِّىَ به ؛ لأنه يكسف فيغسق ، أى يذهب ضوؤه ويسود . ووقوبُه : دخوله فى ذلك الاسوداد .

روى أبو سلمة عن عائشة أنه : أخذ رسول الله ﷺ بيدها وأشار إلى القمر ، وقال : « استعيذى بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب » .

قال ابن قتيبة : ومعنى قوله : تعوّذى بالله من شره إذا وَقب أى دخل فى الكسوف .

وجه آخر إلى جانب أقوال المفسرين :

وعندى فيه وجه آخر : وهو أنه صح أن القمر فى جِرمِه غير مستنير بل هو مظلم ، فهذا هو المراد من كونه غاسقًا .

---

(١) هو الإمام الفقيه أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى النحوى اللغوى صاحب كتاب المعارف وأدب الكاتب والإمامة والسياسة كان فاضلا ثقة وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبى إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادى وأبى حاتم السجستانى ، وتلك الطبقة ، وروى عنه ابنه أحمد وابن درستويه ، وتصانيفه كلها مفيدة : منها ماتقدم ذكره ، ومنها تفسير القرآن الكريم ، وغريب الحديث ، وعيون الأخبار ، ومشكل الحديث ، وطبقات الشعراء وكتاب التفقيه ، وكتاب الخيل ، وكتاب إعراب القرآن وكتاب الأنواء ، وكتاب المسائل والجوابات وكتاب الميسر والقداح . وأقام بالدينور قاضيا مدة فنسب إليها وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين وتوفى فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين .

وقتيبة تصغير قتبة وهى واحدة الأقتاب والأقتاب الأمعاء ، وبها سمى الرجل .

وأما وقوبه : فهو انمحاء نوره فى آخر الشهر .

قول المنجمين فى انمحائه وازدياد نُحوسَتِه آخر الشَّهر :

والمنجمون يقولون : إنه فى آخر الشهر يكون منحوسا قليل القوة ؛ لأنه لايزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نُحوسَتُه .

اختيار السحرة ذلك الوقت لممارسة السحر المُمْرِض :

ولذلك فإن السحرة إنما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض فى هذا الوقت .

وهذا مناسب لسبب نزول السورة ؛ فإنها إنما نزلت لأجل أنهم سحروا النبى ﷺ لأجل التمريض .

وثالثها – قال أبو زيد[1] : الغاسق إذا وقب : يعنى الثريا إذا سقطت .

قال : وكانت الأسقام تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقا ، لانصبابه عند وقوعه فى المغرب .

ووقوبه : دخوله تحت الأرض ، وغيبوبته عن الأعين .

ورابعها – قال صاحب الكشاف : يجوز أن يراد بالغاسق : الأسود من الحيات ، ووقوبه : ضربه ونقبه . والوقب والنقب واحد .

واعلم أن هذه التأويل أضعفَ الوجوه المذكورة .

وخامسها – الغاسق ﴿إذا وقب﴾ هو الشمس إذا غابت ؛

(١) أبوزيد : النحوى اللغوى وهو سعيد بن أوس الأنصارى وهو من الخزرج . كان عالما بالنحو ولم يكن مثل الخليل وسيبويه . وكانت حلقته بالبصرة ينتابها الناس .

وإنما سميت غاسقا ؛ لأنها فى الفلك تسبح . فسمى حركتها وجريانها بالغسق ، ووقوبها غيبتها ودخولها تحت الأرض .

* * *

النَّفَّاثَاتُ فى العُقَدِ وسَبَبُ الاستعاذَةِ من شَرِّهِنَّ

قوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى : فى الآية قولان :

الأول – أنَّ النفثَ النفخُ مع ريق ، هكذا قاله صاحب الكشاف . ومنهم من قال : إنه النفخ فقط ، ومنه قوله – عليه الصلاة والسلام : « إن جبريل نَفَثَ فى روعى » .

والعُقَد جمع عُقْدَة . والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ فى قراءة الرُّقية أخذ خيطا ، ولايزال يعقد عليه عقدا بعد عقد وينفث فى تلك العقد .

لماذا أنث النفاثات ؟

وإنما أنث النفاثات لوجوه :

أحدها – أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء ؛ لأنهن يعقدن وينفثن ، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر ، وإحكام الهمة والوهم فيه ؛ وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن ؛ فلا جرم كان هذا العمل منهن أقوى .

قال أبو عبيدة[1] : النفاثات هن بنات لبيد بن أعصم اليهودى سحرن النبى ﷺ .

---

(١) معمر بن المثنّى وكان من أهل البصرة جماعة انتهى إليهم علم اللغة والشعر وكانوا نحويين منهم الخليل بن أحمد وأبو عبيدة .

وثانيها – أن المراد من النفاثات : النفوس .

وثالثها – المراد منها الجماعات ، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد .

القول الثانى : وهو اختيار أبى مسلم : ﴿ من شر النفاثات ﴾ أى النساء . فى العقد : فى عزائم الرجال وآرائهم ، وهو مستعار[1] من عقد الحبال .

والنفث : وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلا .

فمعنى الآية : أن النساء لأجل كثرة حبهن فى قلوب الرجال يتصرفن فى الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ، ومن عزيمة إلى عزيمة ، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله : **﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾**[2] .

فلذلك عظم الله كيدهن فقال : **﴿ إن كيدهن عظيم ﴾**[3]

الرأى فى هذا القول :

واعلم أن هذا القول حسن ، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين .

---

(١) تشبيها للعزائم القوية فى تصميمها على الأمر وتمسكها به – بالحبال المعقودة عقدا متينا لا يحل.

(٢) ١٤ : التغابن (٣) ٢٨ : يوسف .

المسألة الثانية – موقف المعتزلة من السحر وتأثيره

المسألة الثانية : أنكرت المعتزلة تأثير السحر .

وقد تقدمت هذه المسألة .

ثم قالوا سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة أوجه :

أحدها – أن يستعاذ من إثم عملهن فى السحر .

والثانى – أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن .

والثالث – أن يستعاذ من إطعامهن الأطعمة الرديئة المُوَرِّثة للجنون والموت .

* * *

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَد

من الحاسد ؟ ، ولماذا فرح الرسول عندما نزلت سورة الفلق ؟ وما المراد بشر الحاسد ؟

قوله تعالى : ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾

من المعلوم أن الحاسد هو الذى تشتد محبته لإزالة نعمة الغيْر إليه .

ولا يكون كذلك إلا وَلَوْ تمكّن من ذلك بالحيل لفعل ؛ فلذلك أمر الله بالتعوذ منه .

لماذا فرح الرسول ﷺ بنزول هذه السورة ؟

وقد دخل فى هذه السورة كل شر يُتَوَقَّى ويُتَحرَّزُ منه دنيا ودينا ؛ فلذلك لما نزلت فرح رسول الله ﷺ بنزولها لكونها مع ما يليها[1] جامعة فى التعوذ لكل أمر .

ماذا يراد بشر الحاسد ؟

ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله فى وقت حسده ، وإظهار أثره .

ســـؤالان :

بقى هنا سؤالان :

السؤال الأول – قوله : ﴿ **من شر ما خلق** ﴾ عام فى كل ما يستعاذ منه فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ؟؟

الجواب : تنبيها على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشرور .

السؤال الثانى– لم عَرَّف بعض المستعاذ منه[2] ، ونَكَّر بعضه[3] .

الجواب : عرف النفاثات ؛ لأن كل نفاثة شريرة . ونكَّر غاسقا ؛ لأنه ليس كل غاسق شريرا ، وأيضا ليس كل حاسد شريرا ، بل رُبَّ حسد يكون محمودًا ، وهو الحسد فى الخيرات .

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ .

(٢) أتى به معرفة مثل : النفاثات ، والمعرفة تدل على معين معروف معلوم .

(٣) أتى به نكرة مثل : غاسق ، وحاسد .

سلامة النفس والبدن وسلامة الدين

وقفة مع المعَوِّذتين

يقول الإمام فخرالدين الرازى فى نهاية تفسيره لسورة الناس – وفى مجال الربط بين المعوذتين :

واعلم أن هذه السورة لطيفة أخرى : وهى أن المستعاذ به فى السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهى أنه : ﴿ رب الفلق ﴾

والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهى : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد .

وأما فى هذه السوزة : فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة وهى : الرب ، والملك ، والإله .

والمستعاذ منه آفة واحدة وهى : الوسوسة . والفرق بين الموضعين : أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب .

فالمطلوب فى السورة الأولى سلامة النفس والبدن .

والمطلوب فى السورة الثانية سلامة الدين .

وهذا تنبيه على أن مضرة الدين – وإن قلت – أعظمُ من مضار الدنيا وإن عظمت . والله سبحانه وتعالى أعلم .

القسم الثالث

السحر وموقف الإسلام منه

وقفة مع المفسرين والعلماء فى عصرنا

- مع الإمام محمد عبده .
- مع تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا .
- مع المفكر الإسلامى الدكتور رشدى فكار .
- مع الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى .
- مع فضيلة الدكتور عبدالمنعم القيعى .
- مع فضيلة المفتى الشيخ عبداللطيف حمزة .
- هيا إلى النبع الصافى . مع الأستاذ عباس محمود العقاد .
- إليك فائدة مجربة للوقاية من السحر وإبطاله لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز .

مـع الإمـام محمد عبـده

يقول الإمام محمد عبده فى تفسيره لسورة الفلق :

« ثم خص مخلوقات أُخَرَ لظهور ضررها ، وعسر الاحتياط منه ، فلابد من الفزع إلى الله ، والاستنجاد بقدرته الشاملة على شرها فقال :

﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾

[٤ : الفلق]

العقد : ما نعرفه فى الخيط والحبل – جمع عقدة – ثم تستعمل العقدة فى كل ما ربط وأُحْكم ربطه ؛ ولذا سمى الله الارتباط بين الزوجين عقدة النكاح ، وسمى الإيجاب والقبول فى البيع ونحوه عقدا ، ونسميه عقدة أيضا .

والنفث : النفخ الخفيف ، أو النفخ مع شىء من الريق .

والنفَّاثَةُ : من صيغ المبالغة ، كالعلامة والفهامة ، ويستعمل للذكر والأنثى ، والنفاثات: جمعه ، والمراد بهم هنا النمامون المقطعون لروابط الألفة ، الممزقون لها بما يلقونه من ضرام نمائمهم .

وإنما جاءت العبارة فى الآية ؛ لأن الله تعالى جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين ، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا – فيما يوهمون به العامة – عقدوا عقدة ، ثم نفثوا فيها وحلوها ؛ ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين .

النميمة والسحر :

والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر ، لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة ، بوسيلة خفية كاذبة .

والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق إذا وقب ، ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام ، فإنه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك ، وأنت لا تعلم ماذا يقول ، ولاما يمكن أن يقول .

وإذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق ، حتى لا يكاد يمكن تكذيبه ، فلابد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها ، وهى قوة الله .

رأى الأستاذ الإمام فيما روى أن النبى ﷺ سُحِر وأثر فيه السحر :

وقد رووا ها هنا أحاديث أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم ، وأثر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله أو يأتى شيئا وهو لا يأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفى ﷺ مما كان نزل به من ذاك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام ، حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئا وهو لا يفعله ، ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية ، بل هو ماسّ بالعقل ، آخذ بالروح .

وهو مما يصدق فيه قول المشركين ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً** ﴾ وليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله ، وخيل له أن شيئا يقع وهو لا يقع ، فيخيل إليه أنه يوحى إليه ، ولا يوحى إليه .

خطأ وقع فيه كثير من المقلدين :

وقد قال كثير من المقلدين الذين لايعقلون ما هى النبوة ، ولا ماينبغى لها : إن الخبر بتأثير السحر قد صح ؛ فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين ، لأنه ضرب من إنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر .

فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح ، والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة - نعوذ بالله - يحتج بالقرآن على ثبوت السحر !! ويُعرض عن القرآن فى نفيه عنه ﷺ وعده من افتراء للمشركين عليه ، ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك ؟!!

مع أن الذى قصده المشركون ظاهر ؛ لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه - عليه السلام - وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذى نسب إلى لبيد ، فإنه قد خالط عقله وإدراكه فى زعمهم .

القول الفصل فيما يجب اعتقاده :

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر ، عن المعصوم ﷺ ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه .

وقد جاء بنفى السحر عنه - عليه السلام - حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا ، فإذن هو ليس بمسحور قطعا .

الموقف من الحديث :

١ - وأما الحديث - على فرض صحته - فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد ، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون .

٢ - على أن الحديث الذى يصل إلينا عن طريق الآحاد ، إنما يحصل الظن عند من صح عنده ، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة .

٣ - وعلى أى حال قلنا - بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث ، ولا نحكمه فى عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب ، وبدليل العقل ؛ فإنه إذا خولط النبى فى عقله - كما زعموا - جاز عليه أن يظن أنه بَلَّغ شيئا وهو لم يبلغه ، أو أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليه ، والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان .

٤ - ثم إن نفى السحر عنه لا يستلزم نفى السحر مطلقا ، فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه ؛ لأن الله عصمه .

المحب الجاهل :

ما أضر المحب الجاهل !! ، وما أشد خطره على من يظن أنه يحبه !! نعوذ بالله من الخذلان !!

هل الذى ينفى السحر مطلقا يكون مبتدعا ؟

على أن نافى السحر بالمرة لايجوز أن يعد مبتدعا ؛ لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون فى قوله : ﴿ **آمن الرسول** ﴾الآية وفى غيرها من الآيات ، ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به ، حتى يكون مسلما ، ولم يأت فى شىء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الإيمان بثبوته ، أو وقوعه على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة ، بل الذى ورد فى الصحيح هو أن تعلم السحر كفر ، فقد طلب منا أن لا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه .

المراد بالسحر فى القرآن :

وجاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع مختلفة ، وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان ؛ فإن السحر فى اللغة : صرف الشىء عن

حقيقته ، قال الفراء[1] : فى قوله تعالى : ﴿ فأنَّى تُسْحرون ﴾ ؟ أى أنى تؤفكون وتصرفون . سحره وأفكه بمعنى واحد .

فهــم للأستاذ الإمـام :

وماذا علينا لو فهمنا من السحر الذى يفرق بين المرء وزوجه تلك الطرق الخبيثة الدقيقة ، التى تصرف الزوج عن زوجته ، والزوجة عن زوجها ؟!!

وهل يبعد أن يكون مثل هذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الأساتذة ، ونحن نرى أن كتبا ألفت ، ودروسا تلقى ، لتعليم أساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة فى بعض الحكومات !!

ذكر المرء وزوجه والاقتصار عليهما :

وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر فى أقبح صورة ، أى يقع من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل ، وطرق الإفساد ، أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه وسياق الآية لا يأباه ، وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك ، بعد أن سمى الله خبثاء الإنس المنافقين بالشياطين ، قال : **﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾**[2] . وقال : **﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض ﴾**[3] .

رأى الأستاذ الإمام فى سحر سحرة فرعون :

وسحر سحرة فرعون كان ضربا من الحيلة ، ولذا قال : **﴿ يخيل إليه**

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد . أخذ عن الكسائى . وكان فقيها عالما فى النحو واللغة مات سنة ٢٠٧ . ترجمته فى نزهة الألبا : ١٣٤ ، ومعجم الأدباء ٢٠ : ٩ .

(٢) ١٤ : البقرة .   (٣) ١١٢ : الأنعام .

من سحرهم أنها تسعى ﴾[1] .

وما قال : إنها تسعى بسحرهم . قال يونس : يقول العرب : ما سحرك عن وجه كذا ؟ أى ما صرفك عنه .

خبال نعوذ بالله منه :

ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ، ويعرفون من اللغة ما يكفى لعاقل أن يتكلم ، ما هذروا هذا الهذر ، ولا وصموا الإسلام بهذه الوصمة !!

وكيف يصح أن تكون هذه السورة نزلت فى سحر النبى ﷺ مع أنها مكية – فى قول عطاء والحسن وجابر ، وفى رواية كريب عن ابن عباس – وما يزعمونه من السحر إنما وقع فى المدينة ، لكن من تعود القول بالمحال ، لايمكن الكلام معه بحال !!

نعوذ بالله من الخبال

* * *

تعليق على ما رآه الإمام

أولا – نفى السحر عن الرسول وتأثيره فى عقله الشريف

لقد أحسن الشيخ غاية الإحسان فى نفيه السحر عن الرسول وتأثيره فى عقله الشريف ؛ فإن ذلك لو حدث لا قتضى الشك فيما جاء به ، ولأنه تعالى وبخ المشركين على اتهامهم له – مرة – بأنه مسحور – وأخرى – بأنه من المسحرين ، ولا يوبخهم إلا على ما هو مبرأ منه ، ولا يليق به .

---

(١) ٦٩ : طه .

والحديث الذى يروى أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم – وإن صح من جهة الرواية ، لكنه لايصمد أمام نص القرآن وأمام الدليل العقلى ، فإذا جاء حديث مخالف لها ؛ فإنه يرد ولا يؤخذ به ، إن تعذر التوفيق بينه وبينهما ، وذلك أمر مقرر فى أصول الدين .

وكذلك فعل عمر فيما خالف النص القرآنى ، فما بالنا لا نصنع مثله فيما يخالف النص القرآنى والدليل العقلى ، فنقول : لعل الراوى نسى أو شبه له .

ثانيا – إنكار السحر من حيث هو

إما إنكار السحر من حيث هو فأمر لا نقره عليه – كما يقول الشيخ مصطفى الطير فى بحث ألقاه فى المؤتمر السادس لمجمع البحوث الإسلامية .

أولا : لأن السحر ثابت نصا فى القرآن ، فى شأن سحرة فرعون ، وفى شأن هاروت وماروت .

وقد كان موسى – عليه السلام – يخيل إليه من سحرهم أن حبالهم وعصيهم تسعى ، ولهذا أوجس فى نفسه خيفة منها .

ثانيا : قد ثبت ضرر السحر إذا شاء الله ، وذلك بنص القرآن ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ .

وقد ينتهى الإضرار إلى الصعق ، أو الانهيار العصبى ، أو الجنون .

ثالثا : نقل تلميذه الشيخ رشيد رضا وقائع عجيبة عن السحر فى الهند والتبت فى كتابه « الوحى المحمدى » نقلا عن كتاب « العالم غير المنظور » للدكتور « ألكسندر » الطبيب الإنجليزى بمستشفى الأمراض النفسية بلندن ؛ فلهذا كان ينبغى أن يقتصر نفيه للسحر على الواقعة المزعومة فى شأن النبى ﷺ ، لا أن ينفيه بصفة عامة ، ويؤول ما جاء منه فى القرآن بضروب

الحيل ، وطرق الإفساد ، مع أنه ثابت فى الواقع وله آثاره الضارة ، وقد كان معروفا عند قدماء المصريين ، وصناعة لأهل بابل ، وهو واضح فى قصة سحرة فرعون ؛ حيث أثر سحرهم فى الحبال والعصى بطريقة جعلت موسى عليه السلام يخيل إليه أنها تسعى ، فلما ألقى عصاه ابتلعت ما سحروه .

* * *

رأى الشيخ محمد رشيد رضا
فى تفسيره – المنار –

الأستاذ وتلميذه :

نجد الشيخ رشيد رضا يخالف شيخه فى بعض الأمور : فشيخه نفى السحر عنه ﷺ بمعناه المعروف نفيا باتًّا وأنكر صحة الأحاديث الواردة فى ذلك .

أما هو : فيقرها ، ويصرف السحر إلى ما يتعلق بمباشرة زوجاته ، فاقرأ ما قاله فى ص ١٣٩ من تفسيره للفاتحة والسور الست القصار ، فهو يقول : وقد محصت هذه المسألة مرارا ، آخرها فى الرد على مجلة الأزهر (نور الإسلام) فى زعمها المفترى أننى كذبت حديث البخارى فى سحر النبى ﷺ ، فبينت أن الحديث الصحيح فى هذه المسألة عن عائشة – رضى الله عنها – توهم بعض رواياته ما هو أعم من المعنى الخاص الذى أرادته ، وهو مباشرة الزوجية بينه ﷺ وبينها ، فقولها : كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، كناية عن هذا الشيء الخاص ، لا عام فى كل شيء ، فلا يدخل فيه شيء من أمور التشريع ، ولا غير غشيان الزوجة ، من الأمور العقلية ، أو الأعراض البدنية ، فضلا عما كان يريد الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون ؛ لأن أمورهم فوق المعقول عند أولئك الكافرين ، فالمسألة محصورة

فيما يسمونه حتى الآن (الربط أو العقد) . أى عقد الرجل المانع من مباشرة زوجه فقط . أ . هـ .

هذا ما قاله الشيخ رشيد رحمه الله ، وقد أجاب القدامى من رجال الحديث بأن غاية ما تدل عليه أحاديث السحر : أن ذلك السحر أثر فى بدنه ، دون روحه وعقله ، فكان تأثيره من الأعراض الجسدية ، التى لم يعصم منها الأنبياء !

* * *

ظاهرة السحر فى القرآن

للدكتور رشدى فكار

يقول الدكتور رشدى فكار فى دراسة له خاصة بالسحر : .

علينا أن نعتمد أساسا على المصدر الرئيسى للإسلام ونعنى به القرآن .

١ - القرآن يكذب السحر ولا يصدقه ، ويسفه السحرة ويناقضهم ، ويعطى لهذه الظاهرة تحديدا سببيا لجوهرها ، معريا لها عن كل مزاعمها ، وذلك بما يتمشى ، والرؤية الموضوعية لمواجهة السحر .

٢ - القرآن لم يعط للسحر - على مستوى جوهره - قدرة إعجازية خارقة وإنما هو مجرد « تعلم مكتسب وصناعة » تقول الآية :

﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾[1] ، وفى آية أخرى : ﴿ **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** ﴾[2] ، كما نجد آية تصف

---

(١) ٧١ : طه (٢) ٧٩ : يونس .

السحر بكل وضوح أنه صناعة كيدية غير مفلحة : ﴿ **إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾[1] .

٣ - وفى مجال تنفيذ فاعليته المزعومة يطالعنا القرآن بتفسير سببى موضوعى ، يشرح من خلاله طبيعة السحر ، وكيف يحدث عمليا ، قول الآية : ﴿ **قالوا إن هذان لساحران يُريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾[2] إلى قوله : ﴿ **قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾[3] . لم يسلم القرآن بقدرة السحر وخوارقه ، وإنما عزا[4] الزعم بهذه القدرة إلى مجرد التخيل !

لم يقل القرآن : « فإذا حبالهم وعصيهم تسعى وتتحرك » فهى لم تسع ولم تتحرك مطلقا ، فهى عصى وحبال كما هى جامدة ، وسعيها وحركتها مجرد تخيل لا أكثر ولا أقل .

وهكذا أعطى لنا القرآن تفسيرا سببيا موضوعيا لظاهرة السحر .

٤ - كذلك نفى القرآن عن السحر أى إيجابية اجتماعية فهو عمل فاسد يبطل ولا يعتمد عليه ! تقول الآية القرآنية : ﴿ **قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لايصلح عمل المفسدين** ﴾[5] .

---

(١) ٦٩ : طه .

(٢) ٦٢ : طه .

(٣) ٦٥ ، ٦٦ : طه ، والآية الأخيرة وهى التى تعنينا فى الاستشهاد .

(٤) عزا : نَسَبَ .

(٥) ٨١ : يونس .

وغنىٌ عن التعريف موقف محمد ﷺ رسول الإسلام من السحر ، وتفنيده له ، بل حتى لما حوله من ظاهرات شبيهة كالعرافة مثلا ، كما جاء فى الحديث المشهور « من أتى عرافا يصدقه فقد كذب بما أنزل على محمد » .

وهكذا حينما ندقق النظر فى جوهر رؤية القرآن ، ولا نقرؤه قراءة سطحية روتينية ، لا تبرز لنا قدرة المعانى وأصالتها – نجد أن القرآن الكريم يلتقى مع معطيات الاتجاهات العلمية المفسرة للسحر على أنه ظاهرة كبقية الظاهرات تدرس وتشرح ، وتحدد سببيتها(١) .

مع فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

وعند جهينة الخبر اليقين !

فقد حصلنا على إجابات للأسئلة الآتية :

● هل فى قدرة الإنسان أن يسخر الجان ؟ وما رأيكم فيمن يسخرونهم للإيذاء ؟

● هل من الممكن تسخير الجن فى الإفساد بين الزوجين ؟

● ما الفرق بين سحر قوم فرعون وبين عصا موسى ؟

● ما المقصود بالنفاثات فى العقد ؟

● بم يتحصن المؤمن من كيد السحرة ؟

● كيف العلاج ؟

---

(١) المجلد الثانى من البحث العلمى ١٩٧٢ ص ١٥٥ .

تسخير الجان

وقال فضيلته عن تسخير الجان :

إن الله سبحانه وتعالى حين سخر الجن لسليمان .. سخرهم لنفع الناس وعمارة الأرض ، ولم يسخرهم فى الإيذاء !

فالذين يسخرونهم فى الإيذاء يجنون الشر .. وهذه رحمة من الله تبارك بعباده ؛ لأنه لو أعطى لعدد من البشر فرصة لم تتح للآخرين ، فإن القسوة والشقاء سيسودان العالم ، خصوصا إذا استغل من أعطى هذه الفرصة ليزداد بها شرا ومعصية .

ونريد أن نلفت الأنظار هنا إلى قوله – سبحانه وتعالى – فى تسخير الجن لسليمان : ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾[1] . أى أن الله سبحانه وتعالى حين سخر لسليمان الجن كان عليما بأن سليمان لم يكفر ، ولن يستخدم هذه القوة المسخرة فى الشر .. ولكن استخدمهم فى الخير .

ثم يقول عن الملكين : هاروت وماروت اللذين علما الناس السحر : ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾[2] وكلمة ﴿ لا تكفر ﴾ معناها أنك إذا أخذت قوة ظاهرية فى الكون فإياك أن تستعملها فى غير الخير .

الإفساد بين الزوجين

وعندما سئل فضيلة الشيخ الشعراوى عن تسخير الجن فى الإفساد بين الزوجين قال : لا مانع من وجود السحر .. ولا مانع من تسخير الجن ..

---

(١) ١٠٢ : البقرة

(٢) ١٠٢ : البقرة

والحق سبحانه وتعالى يعطى بعض خلقه خصائص ، وهذه الخصائص تسخر له الجن .

فيجىء الجنى القادر على التشكل للمرأة الجميلة ، ويتشكل بأقنعة صور قبيحة ، ويصبح هو قناعا قبيحا على وجه المرأة الجميلة ، فيكرهها الشخص المقصود ، ويقول عنها : إنها كالقرد أمامه !

وبالعكس يتشكل بصورة قناع جميل ، ويتلبس بوجه المرأة الدميمة أو العادية ، فيحبها الشخص ، ويرى أنها ملكة جمال !

وهكذا فى عقد الزوج على زوجته ، يلبسها متشكلا بصور تبعث على البرود الجنسى ، بل يستطيع أن يتصور بصورة قطعة لحم تسد عضو التأنيث للمرأة ، فيجىء زوجها ، ويقول : جئت ناحيتها ، فلم أجد لها (كذا) .

هذا كله ممكن مادام الجن يتشكل .

والمهم : هو فى التمائم والكلمات التى تستعملها فى تسخير الجن وفى أن الله يعطى الأدنى خصائص الأعلى .

والله من ورائهم محيط

* * *

الفارق بين سحر قوم فرعون وعصا موسى

وعندما سئل فضيلة : أى فرق بين سحر قوم فرعون وعصا موسى ؟ أجاب فضيلته : قال تعالى :

﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾[1] ؟ يرد موسى : **﴿ هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ﴾**

(١) ١٧ : طه .

هنا يقول الله فى المهمة التدريبية لموسى عليه السلام : ﴿ **ألقها يا موسى** ﴾ فيلقى موسى بالعصا ﴿ **فإذا هى حية تسعى** ﴾ وخاف موسى ، لكن الله يقول : ﴿ **لا تخف سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾[1] .

ولو لم يكن موسى قد خاف لقلنا هذا النوع من السحر ، ولْنَتْبه إلى أن هناك فرقا بين السحر الذى كان يمارسه بعض قوم فرعون ، وما جاء به موسى .

إن القرآن يصف حالة موسى :

﴿ **فأوجس فى نفسه خيفة** ﴾[2] وهذا دليل على أن عصاه انقلبت إلى حية بالفعْل ، وهذا هو الفارق بين سحر قوم فرعون وبين عصا موسى .

إن سحرة فرعون يسحرون أعين الناس ، فلا ترى حقيقة الأشياء ، إنما يرى الناس الوهم الذى يضفيه السحرة على أعينهم أما معجزة موسى .. ففيها تغيرت الحقيقة ، وأصبحت العصا حية .. هكذا نرى معجزة الله . مؤانسة لموسى ، ثم بعد ذلك تدريب ، ثم تكليف بالمهمة .

وهكذا يعلمنا الله أنه لا مهمة إلا بتدريب ، ولا إنجاز يحالفه التوفيق بغير إتقان للتدريب .

* * *

النفاثات فى العقد

وعندما سئل فضيلته عن النفاثات فى العقد أجاب :

---

(١) ٢١ : طه . (٢) ٦٧ : طه .

قال تعالى : ﴿ **ومن شر النفاثات فى العقد** ﴾[1] فى تفسير هذه الآية الكريمة : إن فسرناها بأنهن الساحرات أو السحرة على إطلاقهم ، هنا العلماء وقفوا موقفا من هذه الآية .

وكذلك موقفا من قوله تعالى : ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾[2] فى الآية التى تليها .

قال العلماء : إن هذه الآية جاءت بنقطتين وقف العقلانيون فيهما : كيف يوجد شىء يسحر ، وشىء يحسد ؟ إذ أنكر العقلانيون السحر ، وقالوا : إنه لايوجد سحر إطلاقا ؛ ذلك لأنه لم يخضع لقضية عقلية عندهم ، كما أنكروا الحسد أيضا ، لأنه لم يخضع أيضا لقضية عقلانية كذلك .

وكما يقولون عن المدرسة العقلانية : إن لها نية حسنة ، ولكن المدنية الحاضرة والنهضة العصرية - التى بدأ الشرق العربى والشرق الإسلامى أن يتعلق بأسبابها من الغرب فتنت العقول بهذه الأشياء !!

وبعد ذلك جاء العقلانيون يتدخلون فى قضايا الإيمان الغيبية بأن يقربوا المسائل العقيدية التى لا تتفق مع العلم التجريبى وواقع الأشياء ومنطق الأشياء ، فصاروا يؤولون فيها ، وهم بذلك يريدون أن يخضعوا كل قضايا الدين لنطاق التجربة .

ولو أن هذه المسائل دخلت تحت نطاق التجربة لما كانت المسألة فى حاجة إلى رسول ، ولا إيمان بالله .

الأشياء التى كانت غيبا منذ زمان ثم صارت مشهدا تجريبيا الآن وهذه دلالة على أن عقل الإنسان ليس مقياسا فى فهم الأشياء .

عقلك ليس له إلا أن يوثق ذلك . أصدر ذلك عن الله أم لم يصدر ؟

---

(١) ٤ : الفلق . (٢) ٥ : الفلق .

- وبعد ذلك هو قال أو لم يقل ذلك ؟

إن قال .. خذها أنت كما قال الحق تبارك وتعالى .. وبعد ذلك يكون البحث والاجتهاد ، فاهتداء عقلك لبعض الأسرار قد يجعلك تؤمن عن يقين وعن ثقة بالأشياء وأنت لم تشهدها . قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بماشاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم** ﴾[1] .

ويحيطون .. جعل الإحاطة ونسبها للبشر ، لكن بإذن الله ، فكأن كل غيب عن البشر له مقدمات فى الكون من أجل أن يظهر .

قال تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول** ﴾[2] فالمقدمات تفضل من الله على الإنسان. بعض العلماء قال : ﴿ **النفاثات فى العقد** ﴾ إنها ليست السحر قال تعالى : ﴿ **واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ فالسحر ليس عملية بشرية ، وأصله عملية علوية ، فالشياطين علموها للبشر ، وبعد ذلك البشر تناقلوها .

﴿ **وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق** ﴾[3]

---

(١) ٢٥٥ : البقرة . (٢) ٢٦ : الجن . (٣) ١٠٢ : البقرة

علاج المسحور

يقول فضيلته :

علاج المسحور يكون بقراءة المعوذتين :

﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ وبهذا يرد الله به كيد الساحر إلى نحره .

لكن مايضر الإنسان هو نفسه ، فإنه يظلم نفسه عندما يعتقد أن الساحر هو الذى يملك شفاءه من السحر وعليه أن يقول : « **اللهم إنى أفزع إليك إلى ما احتفظت به من شر ما علموه ، وبكبرياء الإيمان ، ووجوه السحرة عليهم غضب وكلهم رهق وتعب** » .

﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾ أى فزادوهم تعبا ؛ لذا نجد عليهم سحنة الغضب .

* * *

بم يتحصن المؤمن من كيد السحرة ؟

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾

وقال : ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾

إذن طلاقة القدرة أعطت الطلقة ، وهى توقف الطلقة ، لذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الاستعاذة منهم بالقول :

« اللهم إنك أردتَ فعلَّمْتَ ، ولكنك احتفظت بالإذن فى الضرر لك ، فأسألك بما احتفظت به أن تكفينى شرَّ ما علمت »

فلا يضر السبب بذاته ، ولكن الله جعله بإذنه ، والله أنجى بإذنه ، وعلمهم الله للابتلاء ، ولكن الضرر بإذنه .

* * *

السحر وموقف الإسلام منه

مع فضيلة الدكتور محمد عبدالمنعم القيعى أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن فى كلية أصول الدين – بالقاهرة .[1]

حقيقة السحر :

تناول فضيلته حقيقة السحر فقال :

والسحر أمر عادى يقع بالتعلم ، وله حقيقة ، ومع ذلك فليس موجِباً ، ولا سببا مولِّدا ، ولا علة عقلية ، بل هو علة عادية (يمكن أن تؤثر ويمكن ألا تؤثر) .

وآية : ﴿ **يخيل إليه مِن سحرِهم أنها تسعى** ﴾ رد على المنكرين لحقيقة السحر ؛ فيجوز أن يكون سحرهم إيقاع ذلك التخيل ولو سُلِّم ، فكون أمره فى تلك الصورة هو التخيل ، لايدل على أن لا حقيقة له .

وقوله تعالى : ﴿ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾، فيؤثر كما يؤثر أى أمر عادى .

ويمكن إبطال تأثيره بوجود مانع ، فمثله مثل النار تؤثر فيما يقبل الاحتراق ، ولا تؤثر فيما لا يقبله كالماء مثلا .

---

(١) العدد الأول من رسالة الإمام التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف .

رأى ابن تيميـــة :

ثم عرض فضيلته رأى ابن تيمية ورده على من ينكرون السحر فقال :
قال ابن تيمية فى كتاب النبوات :

« ومن أنكر السحر والكرامة لشبهها بالمعجزة فهو مخطىء من وجهين :

الأول : إنكار الواقع .

الثانى : الجهل بخاصية المعجزة التى هى فعل لايقدر عليه إلا الله .

التوفيـــق بين الآراء :

وفى محاولة للتوفيق بين المثبتين والمنكرين عرض فضيلته رأى ابن خلدون فى مقدمته فقال :

وقال ابن خلدون فى مقدمته :

هناك علم السحر ، وهو التأثير من غير معين .

وهناك علم الطلسمة ، وهو التأثير بمعين .

وهناك الشعوذة ، أو الشعبذة ، وهو التخيل المخالف للواقع .

فمن أثبت حقيقة السحر أراد الأول والثانى . ومن نفى أراد الثالث .

موقـف العقلانـيين :

ثم وقف فضيلته مع العقلانيين وقفة متأنية يناقشهم ويرد عليهم فقال :
وادعى بعض العقلانيين : إنكار السحر وفسره بالتخيل ، وهذا لعدم علمهم به !

وهم محجوجون بظواهر النصوص ، وبالواقع الذى نلمسه . وثبت فى الصحاح : أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم اليهودى فأنكر جماعة هذا

الخبر صيانة لمقامه ﷺ . وتأوله آخرون ، واعتبروا ذلك فرية روجها أعداء الإسلام ، ثم تلقاها المسلمون بحسن نية .

الرأى الذى يرتضيه فضيلته :

وبعد هذا العرض لشتى الآراء أدلى فضيلته بدلوه فقال :

والذى نرتضيه : تصديق ذلك الخبر حيث روته كتب الحديث المعتبرة وهو ﷺ بشر ومعصوم :

فمن حيث بشريته : يتأثر بالعلل ، كأسباب المرض ، أو الحرارة ، أو البرودة .

ومن حيث عصمته : لا يتأثر فى أى شىء يتعلق برسالته ، ووجوب تبليغه ؛ فلا يمكن لأى ساحر مهما بلغ أن يؤثر عليه فى أمر قصد تبليغه للناس بأمر ربه ، متعلقا بالدين ؛ لقوله تعالى :

﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[1] .

ولو فرض أنه تأثر بالحمى – مثلا – أو بالجراحة ، أو بنحو ذلك ، ما أثر فى عصمته ﷺ .

على أن التمييز بين ما هو حقيقة ، وبين ما هو خيال دليل قاطع على كمال الشخصية ، وقد أخبرت عنه عائشة – رضى الله عنها – أنه كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء ولا يفعله .

وهذا كلام الراوى لا كلامه هو .

---

(١) المائدة : ٦٧ .

رأى مفتـى مصـر

فضيلة الشيخ عبداللطيف حمزة

يقول فضيلته بشأن حقيقة السحر وموقف الإسلام منه :(1)

● إن جمهور الفقهاء قرر :

● أن السحر له حقيقة

● وأنه يضر !

● ولكن لا يضر إلا بإذن الله .

● وثبت أن الرسول سحره أحد اليهود ، وقد جاءه جبريل عليه السلام وأعلمه بالمكان الذى وضع فيه السحر فأمر ﷺ بإحضاره وحله .

● ومع هذا فقد قبح الإسلام السحر ووصف السحرة بأنهم كفرة وبأنهم أتباع الشياطين ، وهذا يدلنا على أنه لايجوز الاشتغال بهذا السحر ؛ لما يترتب على ذلك من أضرار جسيمة !

● وليست الشعوذة والدجل بداخلة فى السحر ، وإنما هى تضليل وابتزاز لأموال الناس بالباطل .

● والإسلام لا يرضى عن هذه الظاهرة ، ويحاربها كل المحاربة .

* * *

---

(1) [مجلة « المسلمون » العدد السابع فى ٨٥/٣/٢٣] .

وبعد .. فهيا إلى النبع الصافى والمصدر الأساسى
(القــرآن الكــريم)

إن القرآن الكريم هو المنبع الصافى الذى يستقى منه المسلمون عقيدتهم . وقد أحسن فهمه مفسرون ، وأساء فهمه مفسرون !!

ويقول الأستاذ العقاد :

« لعله لا ينصف العقائد الإسلامية شيء كما ينصفها فى هذا المقام أن نرجع إلى المسيئين فنراهم جميعا قد أساءوا فهم كتابهم ؛ لأنهم فسروه بالإسرائيليات ، والتلموديات ، وحسبوها سندا محققا عند أصحابها الأولين !!

وما كانت غير أحاديث يتلقفونها ممن تقدمهم ؛ لأنهم لم يفهموا كتبهم ، فالتمسوا فهمها بمعونة من تلك الأحاديث » .

وواجب المسلم أن يتابع آيات القرآن الكريم ، ويدقق النظر فى جوهر رؤية القرآن الكريم ، ولا يقرؤه قراءة سطحية روتينية لا تبرز له قدرة المعانى وأصالتها .

إنما يجب على كل مسلم أن يتدبر آياته ومعانيه ، ويتعرف أهدافه ومراميه فيما جاء عن السحر والسحرة ، ليصل إلى العلم اليقينى الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب : ويحدثنا الأستاذ العقاد عن سلطان إبليس وغواية شياطين الإنس والجن فيقول :

وإن من يتابع آيات القرآن الكريم يجد أنه كلما ذكرت غواية إبليس ذكر معها : أنه ما كان له عليهم من سلطان .

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾

[٤٢ – الحجر]

وكذلك تقول الشياطين لمن يرجع إليها بذنبه :

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾

[٣٠ – الصافات]

أيهما أقدر على الغواية ؟

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الإنس فإن الشيطنة هى عداوة الحق حيث كانت :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ﴾

[١١٢ – الأنعام]

عالَم الغيب ، وعلم السحر ، وهل للشيطان بهما علم ؟

بل ليس للشيطان من الجن علم الغيب ، ولا علم السحر ، إلا أنه خداع للحس ، وفتنة للنفس ، تُخَيِّل إلى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة فى غير وهمه !!

﴿ يعلمون الناس السحر ، وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ﴾

[١٠٢ – البقرة]

جهــل الجــن :

ويحدثنا القرآن عن جهل الجن ، وإلى أى مدى يصل بهم ففى سورة سبأ عن جنود الجن التى جهلت موت سليمان وهو قائم أمامهم **﴿ فلما خر**

تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾
[١٤ - سبأ]

المسحور كالمخمور مخدوع الحواس :

ويسلط القرآن الضوء على المسحور فيوضح أن المسحور كالمخمور مخدوع الحواس ﴿ **إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ .
[١٥ - الحجر]

﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾
[٦٦ - طه]

ويأتى حكم الله القاطع : ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾
[٦٩ - طه]

القرآن وعمل الجن فى خدمة الإنسان :

وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر الجن الذين يعملون للإنسان بإذن الله ، ومنهم جنود سليمان : ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجواب وقدور راسيات** ﴾
[١٢ - ١٣ : سبأ]

لا سلطان للجن على الإنس وشرور الجن تماثل الشرور البشرية :

وفى القرآن ذكر الجن التى تؤمن بالدين ، وتصدق بالكتب وذكر الجن التى تسترق السمع من السماء ، والعفريت الذى تطوى له المسافة ، وتنقاد له المصاعب ، ولكنه لم يذكر لها فى مجال التكليف عملا قط يسقط عن الإنسان تبعته ، أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئته .

ولا يستعاذ فيه من شر يأتى به الجن إلا وهو كذلك من الشرور البشرية أو من الوسواس الخناس ﴿ **الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس** ﴾

[الناس : ٥ – ٦]

* * *

.. وإليك فائدة مجربة بالأشياء التى يتقى بها خطر السحر قبل وقوعه ، والأشياء التى يعالج بها بعد وقوعه من الأمور المباحة شرعا

(لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز)

لقد شرع الله لعباده ما يتقون به شر السحر قبل وقوعه ، وأوضح لهم – سبحانه – ما يعالجونه به بعد وقوعه رحمة منه لهم ، وإحسانا منه إليهم . وإتماما لنعمته عليهم ، وفيما يلى بيان لذلك :

النوع الأول : وهو الذى يتقى به خطر السحر قبل وقوعه فأهم ذلك وأنفعه هو التحصن بالأذكار الشرعية والدعوات والتعوذات المأثورة .

ومن ذلك قراءة آية الكرسى خلف كل صلاة مكتوبة بعد الأذكار المشروعة بعد السلام .

ومن ذلك قراءتها عند النوم ، وآية الكرسى هى أعظم آية فى القرآن الكريم وهى قوله سبحانه :

﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيهُ**

السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾

[٢٥٥ – البقرة]

ومن ذلك قراءة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ خلف كل صلاة مكتوبة .

وقراءة السور الثلاث ثلاث مرات فى أول النهار بعد صلاة الفجر ، وفى أول الليل بعد صلاة المغرب .

ومن ذلك قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة فى أول الليل وهما قوله تعالى :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفرلنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

[٢٨٥ – ٢٨٦ : البقرة]

وقد صح عن رسول الله ﷺ : « من قرأ آية الكرسى فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح » .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »

والمعنى والله أعلم – كفتاه من كل سوء .

ومن ذلك الإكثار من التعوذ « بكلمات الله التامات من شر ما خلق » فى الليل والنهار ، وعند نزول أى منزل .. فى البناء أو الصحراء أو الجو أو البحر ؛ لقول النبى ﷺ : « من نزل منزلا فقال : « أعوذ بكلمات الله

التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » .

ومن ذلك أن يقول المسلم فى أول النهار وأول الليل – ثلاث مرات : « باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » ؛ لصحة الترغيب فى ذلك عن رسول الله ﷺ وأن ذلك سبب السلامة من كل سوء .

وهذه الأذكار والتعوذات من أعظم الأسباب فى اتقاء شر السحر وغيره من الشرور لمن حافظ عليها بصدق وإيمان وثقة بالله ، واعتماد عليه ، وانشراح صدر لما دلت عليه وهى أيضا من أعظم الأسلحة لإزالة السحر بعد وقوعه مع الإكثار من الضراعة إلى الله ، وسؤاله سبحانه أن يكشف الضرر ويزيل البأس .

* * *

الأدعية الثابتة فى العلاج من أمراض السحر وغيره

● ومن الأدعية الثابتة عنه ﷺ فى علاج الأمراض من السحر وغيره ، وكان الرسول ﷺ يرقى بها أصحابه : « اللهم رب الناس أذهِبْ الْبَاس ، واشفِ أنت الشافى ، لا شِفاءَ إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقما » .

● ومن ذلك الرقية التى رقى بها جبرائيل النبى ﷺ وهو قوله : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن شر كل نفسْ أو عين حاسد الله يشفيك . بسمّ الله أرقيك » وليكرر ذلك ثلاث مرات .

علاج نافع بإذن الله لمن حُبِسَ عن أهله .

● ومن علاج السحر بعد وقوعه أيضا وهو علاج نافع للرجل إذا حُبِسَ[1] من جماع أهله :

---

(١) مُنع وكُفَّ وهو مايسمى فى عرفنا « الربط » ومن حيل بينه وبين أهله « مربوط » .

أن يأخذ سبع ورقات من السِّدر الأخضر[1] ، فيدقها بحجر أو نحوه ويجعلها فى إناء ، ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغسل ، ويقرأ فيها « آية الكرسى » و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وآيات السحر التى فى سورة الأعراف وهى قوله سبحانه : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين** ﴾

[الأعراف : ١١٧ – ١١٩]

والآيات التى فى سورة يونس ، وهو قوله سبحانه : ﴿ **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ، فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقُوا ما أنتم مُلقون ، فلما أَلْقَوْا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيُبطله إن الله لا يصلح عملَ المفسدين ، ويُحقُّ الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾[يونس : ٧٩ – ٨٢]

والآيات التى فى سورة طه : ﴿ **قالوا يا موسى : إما أن تُلقِىَ وإما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل أَلْقُوا فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خِيفةً موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألْقِ ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يُفلِحُ الساحر حيث أتى** ﴾

[**طه : ٦٥ – ٦٩**]

وبعد قراءة ما ذكر على الماء يشرب بعض الشىء ويغتسل بالباقى . وبذا يزول الداء إن شاء الله تعالى .

وإن دعت الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء .

---

(١) السِّدْر : شجر النبق واحدته سِدْرة .

من علاج السحر أيضا وهو من أنفع العلاج :

ومن علاج السحر أيضا وهو من أنفع علاجه بذل الجهود فى معرفة موضع السحر فى أرض أو جبل أو غير ذلك فإذا عرف واستخرج وأتلف بطل السحر .

علاجـه بعمل السـحرة

وأما علاجه بعمل السحرة الذى هو التقرب إلى الجن بالذبح أو غيره من القربات فهذا لايجوز ؛ لأنه من عمل الشيطان ، بل من الشرك الأكبر ؛ فالواجب الحذر من ذلك .

كما لا يجوز علاجه بسؤال الكهنة والعرافين والمشعوذين واستعمال ما يقولون ؛ لأنهم لايؤمنون ، ولأنهم كذبة فجرة يدعون علم الغيب ، ويُلَبِّسون على الناس ، وقد حذر الرسول ﷺ من إتيانهم وسؤالهم وتصديقهم والله المسئول أن يوفق المسلمين للعافية من كل سوء ، وأن يحفظ عليهم دينهم ، ويرزقهم الفقه فيه ، والعافية من كل ما يخالف شرعه ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه[1]

* * *

(١) مجلة « المسلمون » العدد التاسع السبت ١٦ – ٢٢ رجب ١٤٠٥ هـ .

وأخيرا ... نعود فنذكّر إخوتنا بما أجاب به الرسول ﷺ :

سئل رسول الله ﷺ عن النُّشْرَة ؟ فقال :

« هي من عمل الشيطان »

[ذكره أبو داود]

والنُّشرة : حل السحر عن المسحور .

- وحل السحر بسحر مثله هو الذى من عمل الشيطان .
- أما حل السحر بالرقية .. والتعوذات .. والدعوات والأدوية المباحة .. فهو جائز .. بل مستحب .

والله أعلم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

* * *

الفهـرس

« تم الفهرس بحمد الله »

الكتب التى أصدرتها مكتبة القرآن للمحقق

١ - منهاج الطفل المسلم - من القرآن الكريم .... « تأليف »

٢ - يوم الفزع الأكبر - للإمام القرطبى .... « تحقيق »

٣ - طبائع النساء - لابن عبد ربه .... « تحقيق »

٤ - قصة السحر والسحرة فى القرآن الكريم للفخر الرازى. « تحقيق »

تم الصف على الكمبيوتر

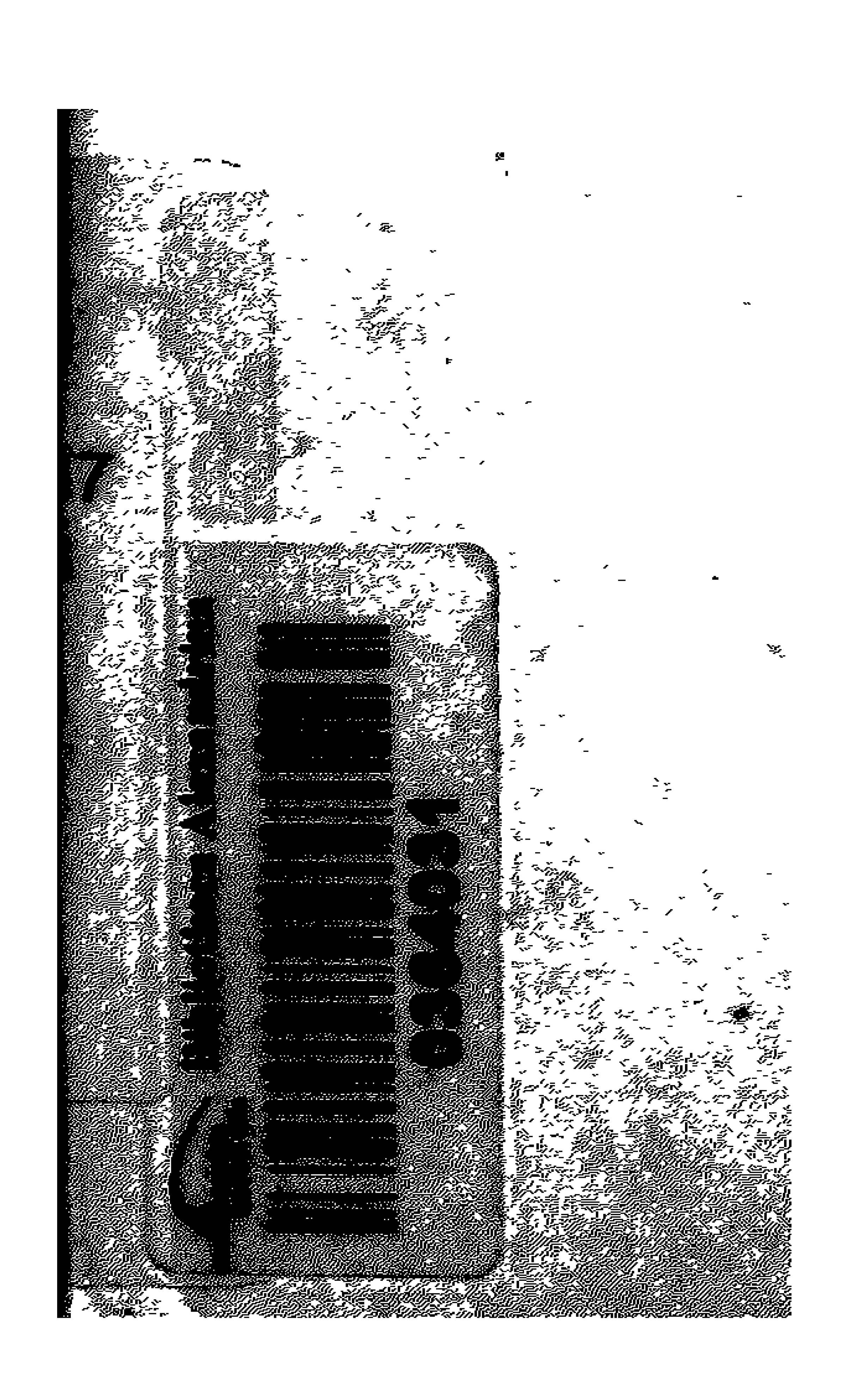
بالمكتب الفنى لتجهيزات الطباعة

٥ شارع سراى المنيل - القاهرة ت : ٨٤٠٨٣٥

رقم الايداع ٥٧١٦ / ٨٥



مكتبة القرآن
للطبع و النشر و التوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٣



٢٥٠ قرشا